الأزمة الروحية في العالم

منطلقاتها وأسبابها وسبيل الخروج منها



الأزمة الروحية في العالم : منسبيل الخروج منها

الأزمة الروحية في العالم منطلقاتها و أسبابها وسبل الخروج منها

مقدمة الدراسة الشاملة

الأزمة الروحية في العالم المعاصر - بين داء الانفصال عن الله ودواء المنهج الرباني

بسم الله الرحمن الرحيم

(يَا أَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَتْكُم مَّوْعِظَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَشِفَاءٌ لِّمَا فِي الصُّدُورِ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ * قُلْ بِفَضْلِ اللَّهِ وَبِرَحْمَتِهِ فَبِذَٰلِكَ فَلْيَفْرَحُوا هُوَ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ)

- يونس: *57-58*

أولاً: لحظة التأمل قبل البدء

وقف الفيلسوف الفرنسي بليز باسكال في القرن السابع عشر أمام حقيقة أذهلته وكتبها في ت省تاته الشهيرة بعبارة ستظل خالدة ما بقي الإنسان على هذه الأرض:

"في قلب كل إنسان فراغ على شكل الله، لا يملؤه شيء سواه، لا المخلوقات مهما عظمت، بل الله وحده الذي لا نهاية له."

وكتب هذا الرجل كلامه قبل أن تنشأ الثورة الصناعية وقبل أن يُعلن نيتشه موت الإله وقبل أن تبتكر الرأسمالية دينها الاستهلاكي وقبل أن تُفرز الشيوعية طغيانها الدموي وقبل أن يُدمن مئة مليون إنسان على المخدرات في عقد واحد وقبل أن تبتلع الوحدة ملايين الأرواح في وسط مدن تعج بالبشر. كتبه في لحظة بصيرة نادرة رأى فيها ما سيحدث لو أن الإنسان أصرّ على ملء هذا الفراغ الإلهي بغير الله.

واليوم وبعد ثلاثة قرون ونصف من كتابة باسكال هذه الكلمات، تقف البشرية أمام المشهد الذي رسمه بصيرته: عالم ملأ هذا الفراغ الإلهي بكل شيء إلا الله، فاكتشف أن كل شيء ملأه لم يكن سوى هواء يتسرب بسرعة ويترك الفراغ أشد خواءً وأكثر إيلاماً مما كان.

هذه الدراسة هي محاولة لفهم هذا المشهد فهماً عميقاً شاملاً، لا من موقع الانتقاد الفارغ ولا من موقع الشماتة الرخيصة، بل من موقع المسلم الذي يحمل في يده مصباح الوحي الرباني ويرى في ضوئه أسباب الداء وطريق الدواء.

ثانياً: لماذا هذه الدراسة في هذا الوقت بالذات؟

يتساءل قارئ متأمل: لماذا نُحرر الآن هذه الدراسة الطويلة المعمقة عن الأزمة الروحية الغربية؟ أليس في العالم الإسلامي ما يستحق الدراسة والتشخيص أولاً؟

والجواب أن ثمة أسباباً موضوعية عدة تجعل هذه الدراسة ضرورة حضارية لا ترفاً فكرياً في هذه اللحظة بالذات:

السبب الأول: أن العالم اليوم قرية واحدة متصلة، وأن الأزمة الروحية الغربية لا تقف عند الحدود الجغرافية للغرب بل تتسرب إلى المجتمعات الإسلامية عبر قنوات الثقافة والإعلام والتعليم والاقتصاد. فالشاب المسلم في القاهرة أو الرياض أو جاكرتا يتنفس اليوم هواءً ثقافياً غربياً في جزء كبير من يومه عبر الهاتف الذكي ومنصات التواصل الاجتماعي وبرامج الترفيه. ومن لا يعرف الداء الذي يتسرب إليه لا يستطيع حماية نفسه منه.

السبب الثاني: أن المسلمين اليوم يُواجهون في محيطهم المباشر أسئلة إشكالية يطرحها عليهم أبناؤهم وجيرانهم وزملاؤهم الغربيون أو المتغربون: لماذا الدين؟ ما جدوى الإيمان؟ ألا يكفي العقل وحده؟ ما الذي يُقدمه الإسلام مما لا تُقدمه الحضارة الغربية؟ ومن لا يملك إجابات عميقة ومدروسة لهذه الأسئلة يجد نفسه عاجزاً في مواجهة موجة الشك والاستفزاز الفكري.

السبب الثالث: أن الغرب نفسه يبحث اليوم بصدق ومرارة عن إجابات لأزمته. وكثير من المفكرين الغربيين النزهاء باتوا يُقرون بأن النموذج المادي الحداثي أخفق في إسعاد الإنسان وأن ثمة شيئاً جوهرياً مفقوداً. وهذه لحظة تاريخية فريدة تستدعي من المسلمين تقديم الإسلام بأسلوب حضاري يُلامس أسئلة هذا العصر ويُجيب عنها بعمق وشمولية.

السبب الرابع: أن فهم الأزمة الروحية الغربية يُعين المسلمين على فهم أزمتهم هم كذلك. فكثير من المشكلات التي تُعاني منها المجتمعات الإسلامية المعاصرة من ضعف الهوية إلى تفكك الأسرة إلى الإدمان إلى الاكتئاب هي أعراض لنفس المرض الذي يُصيب الغرب حين تتشرب هذه المجتمعات القيم المادية وتبتعد عن منهجها الرباني.

ثالثاً: من أين تنطلق هذه الدراسة؟

كل دراسة تنطلق من موقف فكري ومنهجي معين، ومن الأمانة العلمية والفكرية أن نُصرح بموقفنا منذ البداية لا أن نُخفيه وراء ادعاء الحياد التام الذي لا يكون في قضايا الوجود والروح والقيم.

هذه الدراسة تنطلق من ثلاثة منطلقات أساسية صريحة:

المنطلق الأول: الإيمان بأن الله سبحانه وتعالى خلق الإنسان وأودع فيه فطرة خاصة تقتضي التوجه إليه والتعبد له، وأن كل انحراف عن هذه الفطرة يُنتج أزمة روحية حتماً بصرف النظر عن مستوى الرفاهية المادية. وهذا ليس موقفاً عاطفياً بل موقف يستند إلى دليل العقل ودليل الوحي ودليل التجربة الإنسانية التاريخية.

المنطلق الثاني: الإيمان بأن القرآن الكريم والسنة النبوية المطهرة يُقدمان المنهج الكامل الشافي لكل أزمات الإنسان بما فيها الأزمة الروحية التي ندرسها. وهذا الإيمان لا يعني إغلاق العين عن شهادات العلم والفلسفة وعلم النفس وعلم الاجتماع، بل يعني توظيف هذه الشهادات في سياقها الصحيح باعتبارها دوالَّ على ما قرره الوحي لا معارضةً له.

المنطلق الثالث: الإيمان بأن السنن الكونية التي أودعها الله في هذا الكون لا تتبدل ولا تتغير بتغير الأزمان والحضارات. ومن خالف هذه السنن في أي عصر دفع ثمن مخالفته حتماً. وما تُعانيه الحضارة الغربية اليوم من أزمة روحية شاملة ليس حادثة عشوائية بل هو ثمرة حتمية لمخالفة سنن الله في الفطرة والاجتماع والعدل والعبادة.

رابعاً: حدود هذه الدراسة ومنهجها

لكي لا يُصاب القارئ بخيبة أمل أو يُحمِّل الدراسة ما لم تُدَّعَ فيه، لا بد من تحديد ما تفعله هذه الدراسة وما لا تفعله:

ما تفعله هذه الدراسة:

تُشخِّص الأزمة الروحية الغربية بأبعادها التاريخية والفكرية والاجتماعية والنفسية تشخيصاً معمقاً يستند إلى شواهد موثقة من الأرقام والإحصاءات وشهادات المفكرين والعلماء من الشرق والغرب على حد سواء.

تُحلل المنطلقات الفكرية والتاريخية التي أفضت إلى الأزمة تحليلاً يصل إلى الجذور لا يكتفي بالأعراض.

تُقدم رؤية الإسلام للإنسان والكون والحياة باعتبارها المنهج الشافي الوحيد الكامل للأزمة الروحية مع ربط هذه الرؤية بالواقع المعاصر ومتطلباته.

تستعرض ما قاله كبار المفكرين الإسلاميين والغربيين في هذه المسألة الكبرى مع التحليل والمقارنة والتقييم.

ما لا تدّعيه هذه الدراسة:

لا تدّعي الإحاطة الكاملة بموضوع بالغ الاتساع يحتاج إلى مكتبات لا لمحادثات، فهي دراسة معمقة جادة لكنها تبقى في حدود ما تُتيحه طبيعتها وحجمها.

لا تدّعي أن كل ما في الحضارة الغربية باطل أو شر محض، فالحضارة الغربية أنجزت في مجالات العلم والتنظيم والحريات السياسية ما يستحق الاعتراف والدراسة. ما تنتقده الدراسة ليس كل ما أنجزه الغرب بل الفلسفة المادية التي تحكم هذا الإنجاز وتُوجِّهه في الاتجاه الخاطئ.

لا تدّعي أن المسلمين خالون من الأزمة الروحية أو أن مجتمعاتهم نماذج كاملة للمنهج الرباني، بل على العكس فإن من أهداف الدراسة أن تُعين المسلمين على فهم أزمتهم هم كذلك في ضوء ما يُعانيه الغرب.

خامساً: صورة الإنسان في مفترق الطرق

لكي نفهم عمق الأزمة التي ندرسها لا بد من أن نقف لحظة أمام صورة الإنسان الذي يُعانيها. ليس إنساناً مجرداً في الكتب والفلسفات، بل إنسان حقيقي من لحم ودم يعيش اليوم في نيويورك أو باريس أو لندن أو برلين أو سيدني.

تخيّل معي هذا الإنسان الغربي الحديث:

إنه يستيقظ في شقة نظيفة مكيفة الهواء في مدينة تبهر العالم بناطحات سحابها وشوارعها المنظمة وخدماتها المتطورة. يُدير هاتفه الذكي الذي يحمل من المعلومات ما كان يحتاج لعشرين مكتبة تجميعه قبل قرن. يتناول إفطاره من بين مئة خيار في سوبر ماركت يُوفر من أصناف الطعام ما لم تحلم به الإمبراطوريات القديمة. يُدير سيارته المريحة في شوارع آمنة محاطاً بقوانين تحمي حقوقه من كل اتجاه. يعمل في مهنة ربما يكسب منها ما يفوق ما كان يكسبه ملوك قبل قرنين.

ثم يُغمض عينيه في آخر النهار وقبل النوم يُداهمه سؤال لا يُفارقه منذ سنوات يحاول إسكاته بكل شيء: ما الذي يُبرر غداً؟

ليس هو وحده. بحسب أحدث استطلاعات منظمة الصحة العالمية فإن أكثر من ثلاثمئة وخمسين مليون إنسان يُعانون من الاكتئاب في هذه اللحظة، وأكثر من مئة وعشرين مليون يُعانون من اضطرابات القلق، وأكثر من سبعمئة ألف يُنهون حياتهم بالانتحار كل عام، وملايين يهربون إلى المخدرات والكحول هرباً من صمت داخلي لا يُطيقونه.

وهذه الأرقام المروعة لا تتركز في دول الفقر والحرب والمجاعة بل تتركز في أكثر دول العالم رفاهية وأماناً وتقدماً تقنياً. فيمكن القول بلا مبالغة إن الحضارة الغربية أنتجت أنجح آلة للإنتاج المادي عرفها التاريخ، وفي الوقت ذاته أنتجت أتعس إنسان عرفه التاريخ.

والقرآن الكريم وصف هذه الحالة بدقة مذهلة قبل أن تنشأ هذه الحضارة بأكثر من عشرة قرون:

(وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنكاً وَنَحْشُرُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَعْمَى * قَالَ رَبِّ لِمَ حَشَرْتَنِي أَعْمَى وَقَدْ كُنتُ بَصِيراً * قَالَ كَذَلِكَ أَتَتْكَ آيَاتُنَا فَنَسِيتَهَا وَكَذَلِكَ الْيَوْمَ تُنسَى) - طه: *124-126*

"معيشة ضنكاً": الضنك هو الضيق الخانق الذي يُشعر به صاحبه كأن الحياة تضغط عليه من كل جانب حتى يكاد يختنق. وليس هذا وصفاً للفقر المادي، فالآية لم تقل معيشة فقيرة بل قالت معيشة ضنكاً. وهو بالضبط ما يصفه ملايين أصحاب الدخل العالي والرفاهية المادية الواسعة في الغرب: ضيق داخلي لا تفسير مادياً له.

سادساً: الأزمة من منظور تاريخي حضاري

إن ما يُعانيه الغرب اليوم ليس أزمة طارئة نشأت فجأة في القرن العشرين، بل هو نتيجة متراكمة لعملية تاريخية طويلة امتدت قروناً من الانفصال التدريجي عن المنهج الرباني، انفصال بدأ بخطوات صغيرة وتصاعد بشكل متسارع حتى وصل إلى ما وصل إليه اليوم.

وفهم هذا البُعد التاريخي ضروري لسببين:

الأول: أنه يُوضح أن الأزمة ليست قدراً محتوماً على الغرب بل هي نتيجة خيارات فكرية وحضارية يمكن مراجعتها وتصحيحها.

الثاني: أنه يُبين أن ما يُعانيه الغرب اليوم ليس فريداً في التاريخ البشري بل هو تكرار بأشكال مختلفة لما حدث مع حضارات سابقة حين انفصلت عن منهج الله. وهذا ما يُشير إليه القرآن الكريم بمصطلح السنن الكونية:

(قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِكُمْ سُنَنٌ فَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكَذِّبِينَ) - آل عمران: *137*

السير في الأرض والنظر في عواقب الأمم السابقة هو منهج قرآني في الاستفادة من التجربة التاريخية. ودراسة الحضارة الغربية وأزمتها الروحية هي في جوهرها سير فكري في الأرض ونظر في عواقب الحضارة التي أعرضت عن ذكر الله.

ولا بد هنا من الإشارة إلى حقيقة تاريخية كثيراً ما تُهمَل في هذا السياق: حين كانت الحضارة الإسلامية في أوجها بين القرنين الثامن والثالث عشر الميلادي كانت تُقدم للبشرية نموذجاً لا نظير له في التاريخ من التجمع بين الإيمان الراسخ والإنتاج العلمي الرفيع والعدل الاجتماعي النسبي. فالخوارزمي الذي اخترع الجبر وابن سينا الذي أسس الطب الحديث وابن الهيثم الذي أرسى أسس البصريات وابن خلدون الذي أسس علم الاجتماع، كانوا جميعاً علماء مسلمين مؤمنين يرون في العلم عبادة لله وخدمة للإنسان. فلما أخذ الغرب علومهم وفصلها عن روحها الإيمانية حصل على الجسد بلا روح وأنتج حضارة المادة بلا معنى.

سابعاً: الأزمة في أرقامها الصارخة

قبل الخوض في تفاصيل الدراسة لا بد من وقفة مع الأرقام لأنها تُقدم صورة عن حجم المأساة بلغة لا تحتمل الجدل:

أرقام الصحة النفسية:
تُشير إحصاءات منظمة الصحة العالمية إلى أن الاكتئاب بات ثاني أكبر أسباب العجز الوظيفي في العالم ومتوقع أن يُصبح الأول بحلول عام 2030. والولايات المتحدة وحدها التي لا تضم سوى خمسة بالمئة من سكان الأرض تستهلك ستين بالمئة من الإنتاج العالمي لأدوية مضادات الاكتئاب. وتُشير الدراسات إلى أن واحداً من كل خمسة أمريكيين يُعاني من مرض نفسي بشكل أو بآخر في أي وقت معين.

أرقام الانتحار:
يموت بالانتحار في الولايات المتحدة أكثر من سبعة وأربعين ألف شخص سنوياً وهو رقم يفوق ما تقتله حوادث السيارات. وفي أوروبا يُحاول الانتحار أكثر من أربعة ملايين شخص سنوياً. وما يُثير الذهول أن معدلات الانتحار الأعلى في العالم ليست في دول الفقر والحرب بل في دول الرفاهية والأمان كفنلندا والسويد والدانمرك.

أرقام الإدمان:
توفي في الولايات المتحدة وحدها أكثر من مئة وسبعة آلاف شخص عام 2021 بسبب جرعات مفرطة من المخدرات، وهو رقم يتجاوز

مجموع قتلى الحروب الأمريكية في فيتنام وكوريا والعراق وأفغانستان مجتمعةً. وفي أوروبا يُدمن الكحول وحده ما يزيد على عشرة ملايين شخص إدماناً يُصنَّف طبياً على أنه مرض مزمن.

أرقام الأسرة:

وصل معدل الطلاق في بعض المدن الأوروبية إلى سبعين بالمئة من الزيجات. وتجاوزت في فرنسا نسبة الأطفال المولودين خارج إطار الزواج ستين بالمئة. ويرفض أكثر من عشرين بالمئة من شباب اليابان الزواج أو إقامة أي علاقة عاطفية كلياً وفق استطلاعات حديثة.

أرقام الوحدة:

أعلنت بريطانيا أن تسعة ملايين مواطن يُعانون من الوحدة المزمنة وعيّنت لمواجهتها وزيرة خاصة. وفي الولايات المتحدة يصف أكثر من ستين بالمئة من الأمريكيين أنفسهم بأنهم يشعرون بالوحدة بصفة منتظمة رغم أن كثيرين منهم يعيشون مع أسرهم.

هذه الأرقام ليست مجرد إحصاءات باردة، بل كل رقم منها هو إنسان كان لديه اسم وذاكرة وأحلام وأسرة وتاريخ، ثم وجد نفسه في الهاوية الروحية دون أن يفهم ما الذي أوصله إليها ودون أن يجد من يمد له يد الإنقاذ الحقيقية.

ثامناً: الإسلام ومسؤولية الشهادة على الناس

في خضم هذه الصورة المؤلمة يقف المسلم المتأمل أمام آية عظيمة تُلقي على عاتقه مسؤولية لا يستطيع التخلص منها:

(وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطاً لِّتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيداً) - البقرة: *143*

"شهداء على الناس": ليس معناها الاكتفاء بمشاهدة ما يحدث للناس من بعيد وتسجيله في سجل التاريخ. بل معناها تقديم النموذج الحي الذي يشهد للناس بأن ثمة طريقاً آخر غير طريق الضياع الروحي. معناها أن تكون الأمة المسلمة وجودها الحضاري الفعلي برهاناً عملياً على صحة المنهج الرباني.

وهذا يعني أن المسلمين أمام مسؤولية مزدوجة: مسؤولية فهم الأزمة الغربية فهماً عميقاً يُمكِّنهم من الحوار مع أصحابها بلغة حضارية رفيعة، ومسؤولية تقديم النموذج الإسلامي في واقع حياتهم بما يُجسِّد عملياً ما تُقدمه هذه الدراسة نظرياً.

وقد فهم أسلافنا هذه المسؤولية فكانوا حين فتحوا الأمصار يُقدِّمون معهم نموذج العدل والرحمة والعلم والأمانة قبل أن يُقدِّموا السيف. فكانت الشعوب ترى في واقع المسلمين ما لم تجده في أديانها المحرفة وأنظمتها الظالمة فتدخل في الإسلام طوعاً بما لا تستطيعه الجيوش قسراً.

تاسعاً: منهج الدراسة في تناول الموضوع

تسلك هذه الدراسة منهجاً متعدد المستويات يجمع بين:

المستوى التاريخي: تتبع الجذور التاريخية للأزمة الروحية الغربية منذ بداياتها في تشويه الدين المسيحي مروراً بعصر التنوير وثورة التنوير وصولاً إلى القرن الحادي والعشرين. فالأزمة لا تُفهم في معزل عن تاريخها.

المستوى الفكري الفلسفي: مناقشة الأفكار والفلسفات التي أسهمت في تعميق الأزمة من الديكارتية إلى الداروينية إلى الماركسية إلى الوجودية إلى ما بعد الحداثة، مع تقديم الرؤية الإسلامية الناقدة لكل منها.

المستوى الاجتماعي والنفسي: رصد مظاهر الأزمة في الواقع المعاش من انهيار الأسرة إلى تفشي الوحدة إلى الإدمان إلى الاكتئاب إلى أزمة الهوية، مع تحليل الأسباب الروحية العميقة لكل ظاهرة.

المستوى الكوني السُّنَني: تحليل السنن الكونية الربانية التي اصطدم بها الغرب وبيان كيف أن هذا الاصطدام كان حتمياً ومتوقعاً في ضوء الوحي الرباني.

المستوى العلاجي: تقديم الحلول الربانية الشاملة من القرآن والسنة مع ربطها بالواقع المعاصر وإظهار قدرتها على معالجة كل أعراض الأزمة من جذورها.

عاشراً: من يتكلمون في هذه الدراسة

تستعرض هذه الدراسة أصواتاً متنوعة من مفكرين وعلماء وباحثين، وتنقسم هذه الأصوات إلى صنفين:

الصنف الأول: المفكرون والعلماء الغربيون الذين شهدوا على أزمة حضارتهم من داخلها. وهؤلاء شهادتهم لها وزن خاص لأنهم ليسوا متهمين بالتعصب الديني ولا بالنظرة الخارجية. من أمثال كارل يونغ في علم النفس وأوزوالد شبنغلر في فلسفة التاريخ وإيميل دوركهايم في علم الاجتماع وفيكتور فرانكل في علم النفس الوجودي وكثيرين غيرهم.

الصنف الثاني: المفكرون الإسلاميون الكبار الذين حللوا الأزمة الغربية من منطلق الرؤية الإسلامية وأسهموا في فهمها وتشخيصها وتقديم الإجابة الإسلامية عنها. من أمثال مالك بن نبي ومحمد إقبال وسيد قطب ومحمد الغزالي وعبد الوهاب المسيري وطه عبد الرحمن.

واستحضار هذين الصنفين معاً يُعطي الدراسة قوة إضافية: فالشاهد على الداء من أبناء صاحبه أقوى في الحجة، والدواء المقدَّم من طبيب يرى بمصباح الوحي أعمق وأشمل.

حادي عشر: ما الذي يُميز هذه الدراسة؟

كُتب الكثير عن الأزمة الروحية الغربية من منظورات متعددة، فما الذي تُضيفه هذه الدراسة؟

أولاً: أنها تُمسك بالخيط الجامع بين كل مظاهر الأزمة المتفرقة وتُبين أنها جميعاً تنبع من جذر واحد هو الانفصال عن الله، وأن علاجها لا يكون إلا بمعالجة هذا الجذر.

ثانياً: أنها لا تقتصر على النقد بل تُقدم الحل التفصيلي المستند إلى الكتاب والسنة مع ربطه بإشكاليات القرن الحادي والعشرين وأسئلته الحقيقية.

ثالثاً: أنها تجمع بين عمق الرؤية الشرعية وسعة الاطلاع الفكري والحضاري دون أن تُفرِّط في أحدهما على حساب الآخر.

رابعاً: أنها تُخاطب في آن واحد ثلاثة أنواع من القراء: المسلم الذي يُريد أن يفهم حضارته والعالم الذي يعيش فيه، والباحث عن الحق من غير المسلمين الذي يُريد جواباً حقيقياً لأسئلته الوجودية الكبرى، والمفكر والمثقف الذي يُريد الخوض في هذا الموضوع بأدوات فكرية جادة.

ثاني عشر: كلمة أخيرة قبل البدء

قال الله تعالى في محكم التنزيل:

(ظَهَرَ الْفَسَادُ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِي النَّاسِ لِيُذِيقَهُم بَعْضَ الَّذِي عَمِلُوا لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ) - الروم: *41*

في هذه الآية العظيمة يختصر القرآن الكريم قصة الأزمة الروحية كلها في ثلاث جمل:

"ظهر الفساد في البر والبحر": تشخيص الواقع بكل صراحة، الفساد موجود وظاهر ولا يُمكن إخفاؤه.

"بما كسبت أيدي الناس": تحديد المسؤولية بوضوح وصدق، ليس القدر العمياء ولا الظروف الخارجية المجردة بل خيارات الناس وكسبهم وما أسسوه من منظومات فكرية وحضارية.

"لعلهم يرجعون": الأمل الذي لا ينطفئ، فالله لم يذكر الفساد ليُيئس بل ذكره ليُحرك الإنسان نحو المراجعة والعودة. والرجوع ممكن دائماً، وبابه مفتوح دائماً لمن صدق في إرادته.

وهذا هو روح هذه الدراسة: لسنا هنا لنُيئس ولا لنشمت ولا لنُدين، بل هنا لنُشخِّص بأمانة ونُعالج بحكمة ونُبشِّر بالطريق الذي لا يزال مفتوحاً لكل من أراد السلوك فيه.

فبسم الله نبدأ، ومنه نستمد العون والتوفيق، وعليه نتوكل في إتمام هذا العمل على الوجه الذي يُرضيه ويُنفع به عباده.

(رَبَّنَا آتِنَا مِن لَّدُنكَ رَحْمَةً وَهَيِّئْ لَنَا مِنْ أَمْرِنَا رَشَداً) - الكهف: *10*

وبعد هذه المقدمة نبدأ بإذن الله في الجزء الأول من الدراسة: التشخيص الكامل والجذور التاريخية العميقة للأزمة الروحية في العالم المعاصر...

الجزء الأول: التشخيص الكامل والجذور التاريخية العميقة

مدخل استهلالي: صرخة في وادٍ لا يسمعها أحد

في عام 1945، وبعد أن أُسقطت القنبلة الذرية على هيروشيما ونازاكي، وقف العالم مذهولاً أمام قدرة الإنسان التقنية الهائلة على التدمير، وتساءل المفكرون: كيف يملك الإنسان هذه القوة الكبرى ثم يوجهها نحو إبادة أخيه الإنسان؟

الجواب الذي توصل إليه أكثر المفكرين الغربيين عمقاً كان واحداً: لأن الإنسان الغربي طور عقله وجسده وتقنيته، لكنه أهمل روحه وتركها تتضور جوعاً في قفص من الفولاذ والخرسانة والأرقام.

قال المفكر الأمريكي لويس مامفورد في كتابه "شرط الإنسان":

> "لم يكن هيروشيما كارثة تقنية بالدرجة الأولى، بل كانت كارثة روحية، لأن الإنسان الذي يمتلك قنبلة ذرية وقلباً فارغاً من الرحمة والمعنى أخطر بكثير من قنبلة ذرية في يد إنسان يحمل قيماً روحية راسخة"

ومنذ ذلك التاريخ والعالم الغربي يتساءل: أين الخلل؟ وهذه الدراسة محاولة جادة ومعمقة للإجابة عن هذا السؤال الوجودي الكبير، لكن ليس من منطلق الانتقاد الفارغ، بل من منطلق التشخيص الحقيقي الذي يستند إلى كتاب الله وسنة نبيه صلى الله عليه وسلم، وإلى السنن الكونية التي جعلها الله ماضية في البشرية جمعاء، وإلى شهادات العقلاء الصادقين من الشرق والغرب.

الفصل الأول: ما الأزمة الروحية؟ تشريح الداء

أولاً: تعريف الأزمة تعريفاً جذرياً

حين نتحدث عن الأزمة الروحية لا نتحدث عن مجرد ضعف ديني أو تراجع في أعداد رواد الكنائس والمساجد، بل نتحدث عن شيء أعمق وأخطر بكثير، نتحدث عن انهيار المرجعية الكلية للوجود الإنساني، أي أن الإنسان أصبح يعيش في فضاء لا يعرف فيه:

من أين جاء؟ لأن نظرية التطور الداروينية التي هيمنت على التعليم الغربي قالت له: أنت حادثة بيولوجية عشوائية، جدك قرد تطور بالصدفة، وحياتك ليست أكثر قيمة من حياة أي كائن آخر. فأصبح الإنسان يعيش بلا أصل كريم ولا انتماء روحي راسخ.

لماذا يعيش؟ لأن الفلسفات المادية السائدة أفرغت الحياة من أي معنى يتجاوز الحاضر المحسوس، فأصبح الجواب الضمني الوحيد عن سؤال "لماذا أعيش؟" هو: لكي تأكل وتشرب وتتمتع ثم تموت. وحين يكون هذا هو الجواب الوحيد المتاح، يصبح الانتحار منطقياً تماماً لكل من فقد قدرته على الأكل والشرب والتمتع.

إلى أين يذهب؟ لأن الحضارة الغربية الحديثة أحكمت إغلاق باب الآخرة وأقنعت الإنسان بأنه حين يموت يصبح عدماً لا وجود له، فأصبح الموت رعباً لا يحتمل، ومن هنا جاءت صناعة التجميل التي تخفي علامات الشيخوخة، وتجنب التفكير في الموت، وسيطرة لغة الشباب والمتعة على كل شيء.

ما قيمته؟ لأنه حين تُنزع عنه صفة الخليفة في الأرض والمكرَّم من عند الله، ويصبح مجرد رقم في ماكينة الإنتاج والاستهلاك، تسقط عنه كرامته الحقيقية ويصبح عرضة لكل أشكال الاستغلال والإهانة.

هذه الأسئلة الأربعة الكبرى هي التي يجيب عنها الإسلام بإجابات شافية كافية تمنح الإنسان سكينته ويقينه، وهي في الوقت ذاته الأسئلة التي تركت الحضارة الغربية الإنسان يتخبط فيها بلا إجابة حقيقية، وهذا التخبط هو جوهر الأزمة الروحية.

قال الله تعالى:

(وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنكاً وَنَحْشُرُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَعْمَى * قَالَ رَبِّ لِمَ حَشَرْتَنِي أَعْمَى وَقَدْ كُنتُ بَصِيراً * قَالَ كَذَلِكَ أَتَتْكَ آيَاتُنَا فَنَسِيتَهَا وَكَذَلِكَ الْيَوْمَ تُنسَى) - طه: *124-126*

لاحظ الدقة القرآنية المعجزة: لم يقل "معيشة فقيرة" بل قال "معيشة ضنكاً"، والضنك هو الضيق والانقباض، وهو بالضبط ما يصفه الملايين من أبناء الغرب رغم ثروتهم الهائلة، ضيق الروح وانقباض القلب وإحساس بالاختناق لا مصدر مادي له.

ثانياً: الفرق الجوهري بين الأزمة الروحية والأمراض النفسية

كثيراً ما يخلط الناس بين الأزمة الروحية والمرض النفسي، وهذا الخلط خطير لأنه يؤدي إلى معالجة الداء بالدواء الخاطئ. المرض النفسي اضطراب في الكيمياء العصبية وفي الأنماط المعرفية، ويمكن معالجته جزئياً بالأدوية والعلاج النفسي. أما الأزمة الروحية فهي اضطراب في العلاقة مع الوجود ذاته، وفي العلاقة مع الله، ولا تُعالج بالأدوية.

وقد أدرك هذا الفرق كبار علماء النفس الغربيين أنفسهم، وفي مقدمتهم كارل غوستاف يونغ الذي كان تلميذاً لفرويد ثم انفصل عنه حين أدرك أن فرويد يختزل كل شيء في الجنس والدوافع اللاشعورية، بينما رأى يونغ أن الإنسان يحمل في أعماقه "الحاجة الدينية" كحاجة أصيلة لا يمكن اختزالها في غيرها.

كتب يونغ في كتابه "الإنسان وصورة الله" بعد أن قضى أربعين عاماً في علاج المرضى:

"من بين جميع مرضاي الذين تجاوزوا الخامسة والثلاثين من العمر، لم يكن ثمة واحد منهم يعاني من مشكلة لم تكن في جوهرها مشكلة إيجاد موقف ديني من الحياة، وكلهم تقريباً مرضوا لأنهم فقدوا ما منحتهم إياه الأديان الحية في كل عصر، ولم يُشفَ أحد منهم إلا حين استعاد موقفه الديني"

هذا الاعتراف من رجل لم يكن مسلماً ولم يكن يتحدث عن الإسلام تحديداً، بل كان يتحدث عن مبدأ كوني يؤكده القرآن في مئات الآيات، وهو أن الروح البشرية مخلوقة للتعلق بما هو أعلى منها، وحين تُقطع عن هذا التعلق تمرض.

ثالثاً: الأرقام الصارخة التي لا يمكن تجاهلها

لكي نفهم حجم الكارثة الحقيقية دعنا نقف أمام الأرقام وقفة متأنية، لأن الأرقام هي لغة الحضارة الغربية ذاتها، ولأن هذه الأرقام تتكلم بما هو أبلغ من ألف خطاب:

أزمة الاكتئاب والأمراض النفسية:
منظمة الصحة العالمية أعلنت أن الاكتئاب أصبح ثاني أكبر أسباب العجز الوظيفي في العالم، ومن المتوقع أن يصبح الأول بحلول عام 2030. والولايات المتحدة وحدها تستهلك أكثر من ستين بالمئة من الإنتاج العالمي لأدوية مضادة الاكتئاب، مع أنها لا تضم إلا خمسة بالمئة من سكان الأرض. فكر في هذه النسبة المروعة: خمسة بالمئة من البشر يستهلكون ستين بالمئة من أدوية الاكتئاب!

أزمة الانتحار:
في الولايات المتحدة وحدها يقتل الانتحار أكثر مما تقتله الحوادث المرورية، وأكثر مما تقتله بعض الأمراض المزمنة. وحين ندرس توزيع

ظاهرة الانتحار نجد أنها أعلى في أغنى المجتمعات وأكثرها تعليماً ورفاهية، وهو ما يُفسَّر في ضوء السنة الكونية التي أشار إليها القرآن: الغنى المادي بلا غنى روحي يُعمِّق الشعور بعبثية الوجود لأن الإنسان يقول لنفسه: حققت كل ما كان يُقال لي إنه السعادة، ولم أجد السعادة، إذن السعادة غير موجودة.

أزمة الوحدة:
عام 2018 أعلنت الحكومة البريطانية أن الوحدة تصيب أكثر من تسعة ملايين بريطاني بشكل منتظم، وأن آثارها الصحية تعادل تدخين خمس عشرة سيجارة يومياً. وفي الولايات المتحدة أشارت الأبحاث إلى أن أكثر من ستين بالمئة من الأمريكيين يشعرون بالوحدة، بمن فيهم من يعيشون داخل أسر مكتملة!

وهذا الرقم يكشف شيئاً مهماً جداً: الوحدة التي يعانيها الغربيون ليست وحدة الجسد فحسب، بل هي وحدة الروح، وحدة أن تكون محاطاً بالناس ومع ذلك تشعر أن لا أحد يعرفك حقاً أو يفهمك حقاً أو يحبك لذاتك لا لما تقدمه. والإسلام وحده هو الذي يُقدم لهذه الوحدة علاجاً حقيقياً عبر تعميق العلاقة مع الله أولاً، ثم بناء مجتمع قائم على الأخوة الحقيقية.

أزمة المخدرات:
في الولايات المتحدة وحدها توفي أكثر من مئة ألف شخص عام 2021 بسبب جرعات مفرطة من المخدرات، وهو رقم يتجاوز ما قتلته حرب فيتنام طوال عشر سنوات. والسؤال الذي يجب أن نطرحه ليس لماذا ينتشر المخدرات، بل لماذا يحتاج هؤلاء الناس إلى الهروب من واقعهم؟ ما الذي يفرون منه؟ إنهم يفرون من فراغ روحي مقعد لا يطيقون البقاء فيه.

قال النبي صلى الله عليه وسلم: "كل مسكر خمر وكل خمر حرام" - رواه مسلم.

والحكمة من هذا التحريم ليست عقوبة للإنسان بل حماية له من أن يهرب من واقعه بدلاً من أن يبنيه، لأن الهروب الوهمي يُعمِّق الجرح ولا يداويه.

الفصل الثاني: الجذور التاريخية العميقة - كيف وصل الغرب إلى هذه الهاوية؟

المرحلة الأولى: بذرة الأزمة في تشويه الدين المسيحي

لفهم الأزمة الروحية الغربية لا بد من العودة إلى العصور الوسطى، لأن من لم يعرف السبب لا يمكنه فهم النتيجة.

الكنيسة الكاثوليكية في أوجها السلطوي الذي امتد قروناً طويلة ارتكبت في حق الدين والإنسانية جرائم ما كان ينبغي أن ترتكبها، وهذه الجرائم هي التي غرست في الوجدان الغربي معادلة زائفة وقاتلة، المعادلة هي: الدين يساوي الاستبداد والجهل والقمع.

فكيف تشكلت هذه المعادلة؟

جريمة الاستبداد الفكري: حين أثبت العالم البولوني نيكولاس كوبرنيكوس عام 1543 أن الأرض تدور حول الشمس لا العكس، رفضت الكنيسة هذه الحقيقة لأنها تخالف تفسيرها للكتاب المقدس، ثم حين أكد غاليليو غاليلي نفس الحقيقة وأثبتها بالدليل العلمي، حاكمته محاكم التفتيش عام 1633 وأجبرته على التراجع تحت التهديد بالإعدام حرقاً. وقُضي عليه أن يقضي بقية حياته في الإقامة الجبرية.

تصور ماذا يعني هذا في وجدان الإنسان الغربي: رأى بأم عينيه أن الكنيسة تضع نصها الديني في مواجهة الحقيقة العلمية، وحين انتصرت الحقيقة العلمية كان لا بد أن يتساءل: إذا كانت الكنيسة مخطئة في هذا فلعلها مخطئة في كل شيء. وكان هذا بداية الانفصال الكبير بين الدين والعلم في الوجدان الغربي.

لكن الفارق الجوهري الذي غاب عن الغرب: أن ما فعلته الكنيسة لم يكن تعبيراً عن طبيعة الدين بل كان خيانة لطبيعته، لأن الإسلام الذي يقول "إن في خلق السماوات والأرض واختلاف الليل والنهار لآيات لأولي الألباب" لا يمكن أن يعادي العلم بطبيعته، بل إن حضارة الإسلام هي التي حفظت علوم اليونان وطورتها وأوصلتها إلى أوروبا. لكن الغرب وقع في الخطأ المنطقي الفادح حين عمَّم تجربته مع الكنيسة على الدين كله، فكان كمن عانى من طبيب جاهل فرفض الطب كله.

جريمة بيع الغفران: في مطلع القرن السادس عشر وصلت الكنيسة الكاثوليكية إلى درجة لم يسبق لها مثيل في الابتذال الديني، حين باشرت بيع ما سمي "صكوك الغفران"، وهي وثائق يدفع الإنسان ثمنها فيُغفر له ذنبه أو يُخفف عذاب قريبه المتوفى في المطهر. والبابا ليو العاشر كان يستخدم عائدات هذه الصكوك لتمويل بناء كنيسة القديس بطرس في روما.

حين رأى رجل الدين الألماني مارتن لوثر هذا الفساد الديني الصريح نشر عام 1517 وثيقته الشهيرة "خمسة وتسعون أطروحة" في نقد الكنيسة، وكانت هذه بداية حركة الإصلاح البروتستانتي، لكنها كانت في الوقت ذاته فتح باب الشك في الدين ذاته لدى الكثيرين. لأن الناس حين يرون رجال الدين الفاسدين لا يفرقون في الغالب بين فساد الرجل وفساد الدين، وهذا ما حدث بالضبط.

جريمة الحروب الدينية: ثم جاءت الحروب الدينية الأوروبية لتضع الضربة القاضية، إذ امتدت حرب الثلاثين عاماً من 1618 إلى 1648 وذهب ضحيتها ما يقارب ثمانية ملايين إنسان، وكانت في جوهرها حرباً بين الكاثوليك والبروتستانت. فتشكلت في الوجدان الغربي معادلة أخرى قاتلة: الدين يساوي الحرب والقتل، فلو تخلصنا من الدين عشنا في سلام.

وهذه المعادلة أيضاً زائفة جذرياً، لأن الغرب حين تخلص من الدين لم يعش في سلام بل شهد القرن العشرون الحربين العالميتين اللتين راح ضحيتهما أكثر من سبعين مليون إنسان، دون أي دوافع دينية، بل بدوافع قومية ومادية بحتة. ومعنى ذلك أن المشكلة لم تكن في الدين بل في الإنسان حين يُفسد الدين ويوظفه خدمةً لأهوائه.

المرحلة الثانية: عصر التنوير وبناء اليقين بلا الله

حين وصل الغرب إلى درجة عالية من الاحتقان تجاه الكنيسة، جاء عصر التنوير في القرن الثامن عشر ليقدم نفسه بديلاً. وكان شعار هذا العصر: العقل وحده هو الحكم، التجربة وحدها هي المعيار، الإنسان وحده هو المشرّع. وقد جُسِّد هذا الشعار في شخصيات كثيرة لعل أبرزها:

فولتير الساخر اللاذع الذي كان يعتقد في "إله الديزم" أي الإله الذي خلق الكون ثم تركه يسير وحده دون تدخل، وهو عملياً إله يستغني عنه الإنسان في حياته اليومية. وقد وجّه سهام سخريته نحو الكنيسة بلا رحمة وبأسلوب أدبي جذاب كسب له ملايين المتابعين في أرقيه وعصره، حتى أن عبارته الشهيرة "أُشنق آخر ملك بأمعاء آخر قسيس" أصبحت صرخة ثورية في وجه التحالف بين السلطة الدينية والسلطة السياسية.

جان جاك روسو الذي قدّم فكرة أن الإنسان بطبيعته طيب، وأن الحضارة والدين هما اللذان أفسداه، وأن الحرية الفطرية للإنسان هي المرجعية العليا. وكانت هذه الفكرة بذرة خطيرة لأنها تعني عملياً أن لا حاجة لشريعة إلهية تضبط الإنسان لأنه في حالة طبيعته خيّر.

ديدرو وموسوعة العلوم: قاد الفيلسوف دني ديدرو مشروع الموسوعة الفرنسية الكبرى التي كانت تهدف إلى تنظيم كل المعرفة الإنسانية بمعيار العقل التجريبي وحده، وكانت رسالتها الضمنية واضحة: الإنسان قادر على فهم كل شيء وتنظيم كل شيء دون الحاجة إلى وحي أو دين.

لكن الثورة الفرنسية عام 1789 كشفت الوجه الآخر لهذا التنوير حين انتهت إلى حمام الدم في المقصلة، وحين أعلن زعيماؤها "دين العقل" وأقاموا له معابد في باريس وجعلوا من امرأة تمثل "إلهة العقل". وقد كان هذا المشهد كاشفاً لحقيقة لا يريد الغرب أن يواجهها: أن الإنسان حين يلغي الدين لا يتخلص من الحاجة إلى التقديس، بل يبحث عن شيء آخر يُقدِّسه، فإما أن يُقدِّس الأمة والعرق فيُنتج الفاشية، وإما أن يُقدِّس الطبقة العمالية فيُنتج الستالينية، وإما أن يُقدِّس العقل فيُنتج ما انتهت إليه الثورة الفرنسية من مقاصل.

وهذا ما أشار إليه القرآن في قوله تعالى:

(أَفَرَأَيْتَ مَنِ اتَّخَذَ إِلَهَهُ هَوَاهُ وَأَضَلَّهُ اللَّهُ عَلَى عِلْمٍ وَخَتَمَ عَلَى سَمْعِهِ وَقَلْبِهِ وَجَعَلَ عَلَى بَصَرِهِ غِشَاوَةً فَمَن يَهْدِيهِ مِن بَعْدِ اللَّهِ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ) - الجاثية: 23

أفرأيت من اتخذ إلهه هواه: هذا هو بالضبط ما حدث في الغرب، لم يتخلصوا من التأليه، بل أحلوا الهوى الإنساني محل الإله الحق.

المرحلة الثالثة: القرن التاسع عشر والضربات الكبرى الثلاث

في القرن التاسع عشر تلقى الوجدان الديني الغربي ثلاث ضربات كبرى متتالية يمكن أن نسميها "الثالوث المادي المدمر":

الضربة الأولى: ضربة داروين:
عام 1859 نشر تشارلز داروين كتابه "أصل الأنواع" الذي قدّم نظرية التطور بالانتخاب الطبيعي، وادّعى أن الإنسان تطور من أسلاف مشتركة مع القرود. وبغض النظر عن النقاشات العلمية حول هذه النظرية، فإن الأثر الفلسفي لها كان مدمراً، لأنها قالت للإنسان في جوهرها: أنت لست مخلوقاً بإرادة إلهية ولا مكرّماً بصفة خاصة، بل أنت حادثة بيولوجية أفرزتها الطبيعة بعملية عمياء لا هدف لها.

وقد استثمر هذه النظرية الملحدون استثماراً كاملاً، وقالوا: إذا كانت الحياة نتاج تطور عشوائي فلا حاجة إلى خالق، وإذا لم يكن ثمة خالق فلا حاجة إلى شريعة، وإذا لم تكن ثمة شريعة فكل شيء مباح.

لكن الحقيقة الغائبة أن القرآن لم يتعارض مع العلم يوماً، بل إن الإسلام يؤكد أن الإنسان مخلوق من طين ثم نُفخت فيه الروح، وأن الله جعله خليفة في الأرض، وهذا لا يتعارض مع أي اكتشاف علمي حقيقي، لأن الفرق بين الإنسان وسائر المخلوقات ليس فقط في بيولوجيته بل في روحه التي نفخ الله فيها من روحه.

الضربة الثانية: ضربة ماركس:
قدّم كارل ماركس نظريته المادية التاريخية وأعلن مقولته الشهيرة "الدين أفيون الشعوب"، وهو قصد بذلك أن الحكام يستخدمون الدين لإقناع الفقراء بالصبر على ظلمهم بوعد الجنة، فيخدِّرونهم عن المطالبة بحقوقهم. وكان في هذه النقطة تحديداً يصف ظاهرة حقيقية حدثت مع الكنيسة والسلاطين الأوروبيين، لكنه وقع في خطأ التعميم حين أسقط هذا الحكم على الدين كله.

وقد أنتجت الشيوعية التي استندت إلى ماركس من المآسي ما لا يحصى: قتل ستالين في الاتحاد السوفيتي ما يزيد على عشرين مليون إنسان، وقتل ماو تسي تونغ في الصين ما بين ثلاثين وخمسة وأربعين مليون إنسان من خلال "القفزة الكبرى إلى الأمام"، وقتل النظام الخمير الأحمر في كمبوديا ربع سكان البلاد. كل هذا باسم "التحرر من الدين والإيديولوجيا الدينية".

وهذا تأكيد عملي دامٍ لما قاله الله تعالى:

(وَلَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَاحِهَا) - الأعراف: 56

الفساد الحقيقي لا يأتي من الدين بل يأتي من إقصاء الدين وترك الإنسان لهواه بلا ضابط ربّاني.

الضربة الثالثة: ضربة نيتشه:
كانت الأعنف والأصرح والأكثر أثراً على الوجدان الغربي. عام 1882 كتب فريدريك نيتشه في كتابه "العلم المرح" العبارة التي هزت الغرب:

"الله مات! الله يظل ميتاً! ونحن قتلناه! كيف نُعزي أنفسنا نحن قتلة كل القتلة؟ ما كان أقدس وأقوى شيء في العالم قد نزف حتى الموت تحت مشارطنا، من سيمسح هذا الدم عنا؟ بأي ماء نتطهر؟"

ولاحظ الدقة المذهلة في هذه العبارة: نيتشه نفسه لم يحتفل بموت الإله بل رثاه! كأنه يدرك أن قتل الإله ليس تحرراً بل كارثة. ثم خلص إلى أنه لا بد لهذا الإنسان المُتيَّم روحياً أن يخلق لنفسه قيماً جديدة من الداخل، فجاء بفكرة "الإنسان الأعلى" أو السوبرمان الذي يتجاوز قيم الخير والشر الدينية ويخلق قيمه بنفسه.

والمفارقة العميقة المؤلمة أن نيتشه نفسه انتهى عام 1889 مجنوناً، انهار عقله فجأة في أحد شوارع تورينو الإيطالية حين رأى حصاناً يُعذَّب وعانقه باكياً، ثم فقد عقله كلياً وبقي عشر سنوات في مصحة عقلية حتى مات. وكأن الكون أراد أن يقول لمن يسمع: هذا هو مصير من يحمل "إنجيل موت الإله" في صدره.

وهذا ليس شماتة بنيتشه، بل هو إشارة إلى السنة الكونية التي قررها الله في كتابه:

(وَمَن يُعْرِضْ عَن ذِكْرِ رَبِّهِ يَسْلُكْهُ عَذَاباً صَعَداً) - الجن: 17

العذاب الصعدُ الذي لا يتوقف في الارتفاع والتصاعد، وهو ما عاشه الغرب ومازال.

المرحلة الرابعة: القرن العشرون وفشل البدائل جميعها

جاء القرن العشرون ليُجرِّب الغرب كل البدائل التي اقترحها مفكروه لملء الفراغ الروحي، وفشلت كلها:

الفاشية والنازية: اقترح هتلر وموسوليني ملء الفراغ الروحي بتقديس الأمة والعرق، وانتهى المشروع بحرب عالمية قتلت خمسة وخمسين مليون إنسان.

الشيوعية والاشتراكية: اقترح ماركس ولينين ملء الفراغ بتقديس الطبقة العمالية والحلم بالمجتمع الشيوعي الفاضل، وانتهى المشروع بالغلاغ والمجازر الجماعية وانهيار مدوٍّ عام 1991.

الليبرالية والرأسمالية: اقترح آدم سميث وخلفاؤه ملء الفراغ بتقديس الحرية الاقتصادية والسوق الحر، وانتهى المشروع بثروات خيالية في أيدي قلة محدودة وفقر مدقع لمئات الملايين، وبأزمة 2008 المالية التي كشفت هشاشة هذا النظام.

الفرويدية والتحليل النفسي: اقترح فرويد أن ملء الفراغ الروحي يكون بتحرير الكبت الجنسي واستيعاب اللاشعور، وانتهى المشروع بمجتمعات الإباحية الكاملة التي تعاني من أعلى معدلات الاكتئاب والانتحار والطلاق.

وقد لخّص الفيلسوف الفرنسي ألبير كامو مأساة الإنسان الغربي في القرن العشرين حين قال:

"السؤال الوحيد الجدي في الفلسفة هو: لماذا لا أنتحر؟"

وهو لم يكن يمزح، بل كان يعبّر عن الأزمة الوجودية العميقة التي تعيشها الفلسفة الغربية المعاصرة، حين وصلت إلى طريق مسدود لا تجد فيه أي مبرر للوجود.

والجواب الإسلامي على هذا السؤال ليس مجرد جواب فلسفي بل جواب وجودي كامل:

(وَلَا تَقْتُلُوا أَنفُسَكُمْ إِنَّ اللَّهَ كَانَ بِكُمْ رَحِيماً) - النساء: 29

(وَلَا تَيْأَسُوا مِن رَّوْحِ اللَّهِ إِنَّهُ لَا يَيْأَسُ مِن رَّوْحِ اللَّهِ إِلَّا الْقَوْمُ الْكَافِرُونَ) - يوسف: 87

الإسلام يقول للإنسان: حياتك ليست ملكك فتتصرف فيها كيفما شئت، بل هي أمانة من الله، ولكل ألم حكمة، ولكل صبر جزاء، ولكل ظلمة فجر، وهذا بالضبط هو ما يحتاجه الإنسان لكي يتمسك بالحياة.

الفصل الثالث: السنن الكونية التي اصطدم بها الغرب

إن الله سبحانه وتعالى وضع في هذا الكون سنناً ثابتة لا تتبدل ولا تتحول، وقد بيّن في كتابه أن من خالف هذه السنن فلا بد أن يدفع ثمناً:

(سُنَّةَ اللَّهِ فِي الَّذِينَ خَلَوْا مِن قَبْلُ وَلَن تَجِدَ لِسُنَّةِ اللَّهِ تَبْدِيلاً) - الأحزاب: 62

وقد اصطدم الغرب بعدة سنن كونية كبرى وما زال يدفع ثمن هذا الاصطدام:

السنة الكونية الأولى: سنة الفطرة

(فِطْرَتَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللَّهِ ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ) - الروم: 30

الفطرة سنة كونية تعني أن الإنسان خُلق بحاجة روحية أصيلة لا يمكن إلغاؤها، حاجة إلى الله، وحاجة إلى المعنى، وحاجة إلى التقديس. وحين يحاول الغرب إلغاء هذه الحاجة عبر التعليم المادي والفلسفة الإلحادية، فإنه لا يلغيها حقيقةً بل يكبتها.

والمكبوت لا يختفي بل يبحث عن متنفس آخر. ومن هنا نفهم الظواهر الغريبة في المجتمعات الغربية:

ظاهرة الروحانيات الجديدة: في أمريكا وأوروبا ظهر ما يسمى "New Age" أو الروحانية الجديدة، وهي حركة ضخمة تجمع الملايين الذين يرفضون الأديان الكلاسيكية ومع ذلك لا يستطيعون العيش بدون روحانيات، فلجؤوا إلى خليط غريب من: التأمل البوذي، وتقديس الطبيعة، وقراءة الطالع، والاستعانة بالأرواح، والسحر الأبيض والأسود. مليارات الدولارات تُنفق سنوياً على هذه الصناعة في أمريكا وحدها.

ظاهرة عبادة المشاهير: أصبح التعلق بالمشاهير في الغرب ظاهرة لها كل ملامح الظاهرة الدينية: التبجيل الأعمى، والدفاع عن كل تصرفات الأيدول، والحزن العميق المتشبه بالعزاء عند وفاته، وزيارة أماكن ميلاده وموته كزيارة الأضرحة. فنانو البوب أصبحوا آلهة بديلة لجيل فُرِّغت روحه من التوجه إلى الله الحق.

ظاهرة عبادة الرياضة: الملاعب في الغرب باتت تشبه المعابد، بطقوسها الجماعية، وترديد الأناشيد، والوحدة العاطفية الجماعية، والتعصب القبلي. وقد وصف عالم الاجتماع البريطاني نيك ميدوز ملاعب كرة القدم بأنها "كاتدرائيات العلمانية" أي المعابد التي يلجأ إليها الإنسان العلماني ليشبع حاجته إلى التجمع الروحي.

ظاهرة المخدرات والكحول: وصف الباحث البريطاني جوهان هاري في كتابه "مطاردة الصراخ" نتيجة مذهلة توصل إليها بعد سنوات من البحث: أن الإدمان ليس سبباً للمشكلة بل هو أعراضها، وأن جذر الإدمان هو الانقطاع والوحدة والفراغ من المعنى. وهذا بالضبط ما يقوله الإسلام: حين يفقد الإنسان علاقته بالله يبحث عن بديل يُنسيه، وكل مسكّن مؤقت لا يؤدي إلا إلى تعمق الجرح.

السنة الكونية الثانية: سنة الاجتماع والرابطة الروحية

(وَاعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعاً وَلَا تَفَرَّقُوا وَاذْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنتُمْ أَعْدَاءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُم بِنِعْمَتِهِ إِخْوَاناً) - آل عمران: 103

هذه الآية تكشف سنة كونية بالغة الأهمية: الاجتماع الحقيقي والرابطة القوية لا تقوم على المصالح المادية بل تقوم على "حبل الله"، على الرابطة الروحية المشتركة. والغرب حاول أن يبني التماسك الاجتماعي على أساس مادي: القانون، والمصلحة المشتركة، والعقد الاجتماعي. فأنتج مجتمعات من الذرات المنعزلة التي تعيش جنباً إلى جنب دون أن تتصل روحياً.

قال عالم الاجتماع الفرنسي إميل دوركهايم في نهاية القرن التاسع عشر في دراسته التأسيسية عن الانتحار والتي أصبحت من أهم الكتب في علم الاجتماع:

"الانتحار يرتفع في المجتمعات التي تضعف فيها الروابط الجماعية وتزيد فيها الفردية، وهذا ما أسميته الانتحار الأنومي، انتحار الفراغ الاجتماعي"

ودوركهايم لم يكن مؤمناً بالمعنى الديني، لكن نتائجه العلمية كانت تؤكد ما قاله الإسلام منذ أربعة عشر قرناً: الإنسان بحاجة إلى الجماعة لا إلى العزلة الفردانية، ولا جماعة حقيقية بدون رابط روحي مشترك.

مثال معاصر صارخ: اليابان هي الدولة الأكثر تمديناً وتقدماً تقنياً في آسيا، وهي في الوقت ذاته تعاني من ظاهرة مؤلمة تسمى "هيكيكوموري"، وهي ظاهرة الشباب الذين يحبسون أنفسهم في غرفهم سنوات طويلة يرفضون الخروج وقطعوا كل علاقاتهم الاجتماعية. ويُقدَّر عددهم بأكثر من مليون شخص في اليابان وحدها. وهم يعيشون في وسط حضارة متقدمة وأسر لا تعاني من الفقر، لكنهم فقدوا المعنى والانتماء الروحي فانسحبوا من الوجود.

السنة الكونية الثالثة: سنة العدل والتوازن

(وَالسَّمَاءَ رَفَعَهَا وَوَضَعَ الْمِيزَانَ * أَلَّا تَطْغَوْا فِي الْمِيزَانِ * وَأَقِيمُوا الْوَزْنَ بِالْقِسْطِ وَلَا تُخْسِرُوا الْمِيزَانَ) - الرحمن: *7-9*

الميزان والعدل والتوازن ليست مجرد قيم دينية بل هي سنن كونية مبنية في بنية الكون نفسه. وحين يخل الإنسان بالميزان في أي مجال يدفع الثمن حتماً:

الاختلال في ميزان توزيع الثروة: الرأسمالية المنفلتة أنتجت عالماً يمتلك فيه 2153 مليارديرا ثروة تفوق ثروة 4.6 مليار إنسان. هذا الاختلال الفاحش في الميزان أنتج شعباً غاضباً وسياسيين شعبويين ونزاعات اجتماعية متصاعدة.

الاختلال في ميزان العلاقة بالطبيعة: تجاوز الإنسان الحدود في استنزاف موارد الأرض، ومصدر هذا التجاوز في جوهره فلسفي: نظرة مادية إلى الطبيعة على أنها مجرد أداة للاستغلال لا أمانة مقدسة تستوجب الرعاية. والنتيجة ظاهرة التغير المناخي والكوارث البيئية المتصاعدة.

الاختلال في ميزان العلاقة بين الجنسين: حين أفرزت الحداثة الغربية نموذجاً يلغي الفطرة ويعلو على التكوين البيولوجي والنفسي لكل من الرجل والمرأة، وحين صار الحديث عن دور الأم وأهمية الأسرة المستقرة موضع سخرية في بعض الأوساط الثقافية الغربية، كانت النتيجة ارتفاعاً كبيراً في معدلات الطلاق، وتناقصاً ديموغرافياً خطيراً، وتشرذماً أسرياً عميقاً.

السنة الكونية الرابعة: سنة الابتلاء والتمحيص

(أَحَسِبَ النَّاسُ أَن يُتْرَكُوا أَن يَقُولُوا آمَنَّا وَهُمْ لَا يُفْتَنُونَ) - العنكبوت: *2*

هذه السنة تقول إن الراحة المطلقة والرفاهية التامة بلا تحديات روحية ليست هي السعادة الحقيقية. والغرب حاول بناء نموذج "الراحة الكاملة" فبنى دولة الرفاه ووفّر كل احتياجات الجسد، لكن الإنسان الذي لا يواجه تحديات روحية ولا يصارع نفسه ولا يتحمل مسؤولية أخلاقية يُصاب بالفراغ والعبث.

هذا ما اكتشفه عالم النفس النمساوي فيكتور فرانكل الذي نجا من معسكرات الاعتقال النازية وكتب كتابه الشهير "الإنسان يبحث عن المعنى". قال فرانكل:

"لاحظت في المعسكر أن الذين نجوا ليسوا بالضرورة الأقوى جسداً أو الأحكم ذهناً، بل هم أولئك الذين وجدوا معنى لمعاناتهم، الذين كان لهم لماذا يعيشون استطاعوا تحمل كيف من المعاناة"

وهذا يكشف حقيقة مذهلة: الإنسان لا يحتاج إلى الراحة الكاملة ليكون سعيداً، بل يحتاج إلى المعنى. والإسلام هو الذي يمنح المعنى الأعمق لكل تجربة إنسانية بما فيها المعاناة والابتلاء.

الفصل الرابع: شهادات العقلاء من داخل الحضارة الغربية

ما يجعل هذه الدراسة أقوى وأكثر مصداقية هو أن الأصوات الأكثر نقداً للحضارة الغربية الحديثة لم تأتِ من خارجها فحسب، بل جاءت من أعمقها وأكثر أبنائها ارتباطاً بها:

شهادة كارل يونغ: عقل الغرب يشهد على نفسه

كارل يونغ هو ربما أعمق علماء النفس الغربيين وأكثرهم استيعاباً للبُعد الروحي في الإنسان. وقد كان في بداية مسيرته تلميذاً لفرويد وأكثر أتباعه ذكاءً، ثم انفصل عنه لأنه وجد أن النموذج الفرويدي القائم على الجنس واللاشعور لا يكفي لتفسير الإنسان.

خلص يونغ بعد عقود من الممارسة السريرية إلى أن:

- في الإنسان ما سماه "اللاشعور الجمعي" وهو رواسب روحية مشتركة بين البشر جميعاً تحتوي على نماذج أصيلة تسمى Archetypes، ومن أبرزها نموذج الإله والنموذج الأبوي والأمومي والبطولي.
- الإنسان الذي لا يُعبِّر عن حاجته الدينية عبر دين حقيقي يُعبِّر عنها عبر انفجارات مرضية.
- الصحة النفسية الحقيقية مستحيلة بدون ما سماه "التفرد" أي الاندماج الكامل بين البُعد الواعي واللاشعوري والروحي للإنسان.

قال يونغ في كتابه "سيكولوجيا ودين":

> "الإله في اللاشعور حاضر سواء آمنت بوجوده أم لم تؤمن، والفرق الوحيد أن من يؤمن يُوجِّه هذه القوة الروحية الهائلة نحو التكامل، أما من يُنكر فإنها تنفجر فيه من حيث لا يحتسب"

شهادة أوزوالد شبنغلر: الغرب يرثي نفسه

عام 1918 نشر المؤرخ الألماني أوزوالد شبنغلر كتابه الصاعق "أفول الغرب" الذي أصبح من أكثر كتب التاريخ جدلاً. وقد تنبأ فيه بانحدار الحضارة الغربية انطلاقاً من رؤية دورية للتاريخ، إذ رأى أن كل حضارة كالكائن الحي تمر بمراحل: الطفولة والشباب والنضج ثم الشيخوخة والموت.

وكان جوهر تشخيصه أن الحضارة الغربية دخلت مرحلة الشيخوخة حين تحولت من "ثقافة" تحمل روحاً وقيماً حية إلى "حضارة" أي تقنية وتنظيم مادي بلا روح. وقال:

> "الإنسان في هذه المرحلة يصبح حيواناً اقتصادياً بامتياز، يعيش في مدن ضخمة تشبه الكهوف الحديثة، منفصلاً عن الطبيعة ومنفصلاً عن الجذور الروحية، وهذا هو بداية النهاية"

والمثير للدهشة أن شبنغلر كتب هذا قبل نشوء الإنترنت والهواتف الذكية والعولمة الاستهلاكية، ومع ذلك كأنه يصف بدقة واقع الإنسان الغربي في القرن الحادي والعشرين.

شهادة روجيه غارودي: من الداخل إلى الإسلام

روجيه غارودي كان واحداً من أبرز المثقفين الشيوعيين الفرنسيين في القرن العشرين، وكان عضواً قيادياً في الحزب الشيوعي الفرنسي، ثم تحول إلى الكاثوليكية، ثم إلى الإسلام عام 1982. وقصته رحلة من الداخل تكشف مسار الأزمة الروحية في الغرب.

حين سُئل لماذا اعتنق الإسلام قال:

"لأنني جربت كل الأيديولوجيات الكبرى التي أنتجها القرن العشرون: الشيوعية، والديمقراطية الليبرالية، والمسيحية. ووجدت أن كلها تبدأ بوعود كبيرة وتنتهي بإفلاس روحي. وحين قرأت القرآن وجدت أخيراً ما كنت أبحث عنه: نظرة متكاملة للإنسان تُعلي من شأن الروح بقدر ما تُعلي من شأن العقل، وتربط الفرد بالله مباشرة دون وساطة كهنوتية، وتجعل من الحياة كلها عبادة"

وكتب في أحد مؤلفاته الأخيرة:

"الحضارة الغربية مريضة بثلاثة أمراض متشابكة: مرض الفردانية التي تُحول الإنسان إلى ذرة منعزلة، ومرض الاستهلاكية التي تُحوِّل الإنسان إلى محرك اقتصادي، ومرض العدمية التي تُفرغ الحياة من أي معنى يتجاوز اللحظة الراهنة. وهذه الأمراض الثلاثة لا علاج لها إلا العودة إلى البُعد الروحي الحقيقي"

شهادة يورغن هابرماس: العلماني يتراجع

يورغن هابرماس من أكبر الفلاسفة الغربيين الأحياء، وهو يمثل التيار العقلاني العلماني، ولم يتحول إلى الدين. لكنه في مرحلة متأخرة من مسيرته الفلسفية قال ما أصدم كثيراً من العلمانيين:

"المجال العام لا يستطيع الاستغناء عن الدين لأن الدين يُمد المجتمع بمنابع أخلاقية ومعنوية لا يمكن توليدها بالعقل السياسي وحده. الدولة المحايدة دينياً لا تستطيع توليد الولاء والتضامن اللذين تحتاج إليهما"

وكانت هذه جرأة فكرية كبيرة لأن المشروع العلماني الغربي بنى أساسه على أن الدولة تستطيع إدارة شؤون الإنسان بكفاءة تامة بمعزل عن الدين، وهابرماس يقول إن هذا المشروع يفتقر إلى ما هو أساسي.

خلاصة الجزء الأول

في هذا الجزء الأول من الدراسة وقفنا على:

أولاً: الأزمة الروحية ليست شعوراً عابراً بل هي انهيار كامل في بنية المعنى لدى الإنسان الغربي، تُثبته أرقام مرعبة من الانتحار والاكتئاب والوحدة والإدمان.

ثانياً: الجذور التاريخية للأزمة ممتدة في قرون من تشويه الكنيسة للدين، ثم الانقلاب عليه بالكلية، ثم تجريب بدائل مادية كلها فشلت.

ثالثاً: اصطدام الغرب بالسنن الكونية لم يُلغِ هذه السنن بل جعله يدفع ثمناً متصاعداً.

رابعاً: شهادات أبرز مفكري الغرب أنفسهم تُؤكد عمق الأزمة وتُؤشِّر إلى الحل الروحي.

الجزء الأول - القسم الثاني: المنطلقات الأولى والأسباب العميقة للأزمة

تمهيد: لماذا نعود إلى البدايات؟

ثمة مثل عربي حكيم يقول: "إذا أردت أن تعرف النهر فاذهب إلى المنبع". وهذا بالضبط ما نريد فعله في هذا القسم، لأن كثيراً من الدراسات التي تتناول الأزمة الروحية الغربية تبدأ من منتصف القصة، فتصف الأعراض دون أن تتعمق في الجذور، وتتحدث عن نيتشه وداروين وماركس دون أن تسأل: ما الذي مهّد لهم؟ ما الذي جعل الأرض خصبة لأفكارهم؟ لماذا قبلها الناس وتبنّوها بسرعة مذهلة؟

إن الأفكار لا تنشأ في فراغ، وكل فيلسوف مهما بلغت عبقريته هو في نهاية المطاف ابن بيئته وزمانه، ينطلق مما هو موجود ويضيف إليه أو يثور عليه. فلا بد إذن من العودة إلى المنطلقات الأولى والتعمق في الأسباب البعيدة والقريبة التي أفضت إلى هذه الكارثة الروحية الكبرى.

المحور الأول: الإنسان الغربي قبل الأزمة - صورة المنطلق

أولاً: الإنسان في ظل المسيحية الأولى

لفهم ما آل إليه الغرب لا بد من استيعاب ما كان عليه، لأن الأزمة لا تُفهم إلا في ضوء ما سبقها. والغرب في عصوره الأولى التي أعقبت انتشار المسيحية كان يعيش في ظل منظومة روحية وإن كانت محرَّفة إلا أنها كانت تُعطي الإنسان شيئاً جوهرياً لا يستطيع العيش بدونه: الشعور بالانتماء إلى قصة أكبر منه، ومعنى يتجاوز حدود حياته الفردية القصيرة.

كان الإنسان الأوروبي في القرن العاشر مثلاً يعرف من أين جاء: خُلق على صورة الله. ويعرف لماذا يعيش: لعبادة الله وخدمة خلقه. ويعرف إلى أين يذهب: إلى يوم الحساب والجزاء. وكانت هذه اليقينيات الثلاث تُعطيه استقراراً روحياً حتى في أحلك الأوقات.

الفلاح الأوروبي البسيط في العصور الوسطى كان يُفسِّر مرضه وفقره وبلاءه في إطار يمنحه الصبر ويُعطيه الأمل: هذا ابتلاء من الله الذي يُحبه، وحياته الدنيا ليست إلا محطة عابرة تسبق الأبدية المنتظرة. وهذه البنية الفكرية التي نقدها المتنورون لاحقاً بوصفها "خدراً للشعوب"، كانت في الحقيقة تُؤدي وظيفة روحية حيوية لا تُقدَّر.

الأمر يشبه تماماً ما قاله الله عن المؤمن في القرآن الكريم:

(قُلْ لَّن يُصِيبَنَا إِلَّا مَا كَتَبَ اللَّهُ لَنَا هُوَ مَوْلَانَا وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ) - التوبة: *51*

هذه الآية تصف حالة نفسية تُعطي الإنسان قدرة مذهلة على مواجهة الصعاب، لأنه يرى ما وراء الظاهر المؤلم قدراً إلهياً حكيماً. والإنسان الأوروبي القديم كان يمتلك قدراً من هذا التوجه، وإن كانت العقيدة التي يستند إليها محرَّفة، إلا أن بنيتها الأساسية من الإيمان بالله والقضاء والقدر والحياة الآخرة كانت تُؤدي دوراً وقائياً هاماً.

ثانياً: الفارق بين الدين المحرَّف والدين الصحيح

قبل أن نمضي يجب التأكيد على نقطة جوهرية يكثر الخلط فيها: حين نتحدث عن الأزمة الروحية التي أنتجتها المسيحية المؤسسية، لا نتحدث عن الدين في جوهره بل عن الدين المحرَّف والمؤسسة الدينية الفاسدة.

الإسلام يُميِّز بوضوح تام بين هذين المستويين. فالقرآن الكريم حين يتحدث عن اليهود والنصارى لا يُنكر عليهم أصل الرسالة بل يُنكر عليهم التحريف والتبديل:

(يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لَا تَغْلُوا فِي دِينِكُمْ وَلَا تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ إِلَّا الْحَقَّ) - النساء: *171*

ويقول:

(فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ يَكْتُبُونَ الْكِتَابَ بِأَيْدِيهِمْ ثُمَّ يَقُولُونَ هَذَا مِنْ عِندِ اللَّهِ لِيَشْتَرُوا بِهِ ثَمَناً قَلِيلاً) - البقرة: *79*

إذن المسيحية الكنسية الوسيطة كانت مشكلتها مزدوجة: فيها تحريف عقدي أصيل كعقيدة التثليث والفداء والصلب، وفيها فساد مؤسسي مكتسب كبيع الغفران ومحاكم التفتيش والاستبداد. والغرب حين ثار على هذه المشكلات لم يُميِّز بين الطبقتين، فثار على الدين كله بدلاً من أن يُصحِّحه.

وهذا بالضبط هو أحد أهم المنطلقات الأساسية للأزمة: الغرب واجه ديناً محرَّفاً فحسب الدين كله مُحرَّفاً، فرفض البديل الروحي الصحيح الذي يُمثِّله الإسلام.

وكم كان من المختلف لو أن علماء الغرب الذين ثاروا على فساد الكنيسة قرؤوا القرآن الكريم بعيون مفتوحة! كثيرون منهم حين قرؤوه وجدوا فيه ما يُجيب على تساؤلاتهم، من أمثال الفيلسوف الألماني غوته الذي أعجب إعجاباً عميقاً بالإسلام وقال:

"إذا كان هذا هو الإسلام فإننا جميعاً مسلمون"

المحور الثاني: الأسباب البنيوية العميقة للأزمة

السبب الأول والأعمق: فقدان التواصل المباشر مع الله

هذا السبب يستحق أن نقف عنده طويلاً لأنه جذر كل الجذور، وهو الذي لا يُشير إليه كثير من الدارسين رغم أنه في صميم الأزمة.

المسيحية الكاثوليكية بنت نظاماً لاهوتياً فريداً في تاريخ الأديان يقوم على فكرة الوساطة الكهنوتية، أي أن الإنسان العادي لا يستطيع التواصل مع الله مباشرة، بل لا بد له من وسيط هو القسيس أو البابا الذي يملك وحده سلطة منح الغفران وأداء الطقوس المقدسة. ومن هنا جاء نظام الاعتراف حيث يذهب المؤمن إلى القسيس يعترف له بذنوبه ويطلب منه الحلّ والمغفرة.

وهذا النظام الوساطي أنتج ديناميكية خطيرة تؤدي مع الوقت إلى الانفصال الروحي لسببين:

السبب الأول: الإنسان فطرياً يريد أن يتحدث إلى الله مباشرة، يريد أن يُفضي بما في قلبه إلى من يسمعه حقاً لا إلى وسيط بشري. وحين يُقال له إن هذا التواصل المباشر غير ممكن تحل محله طقوس رسمية باردة تُعطيه قشرة الدين دون لبابه.

السبب الثاني: هذا النظام يجعل الدين مؤسسة يديرها رجال بمصالح بشرية، ومن الحتمي أن تتسرب الفساد إلى أي مؤسسة بشرية. وهكذا تحوّل رجال الدين من حملة أمانة روحية إلى أصحاب امتياز سلطوي.

في المقابل انظر إلى ما يقوله الإسلام:

(وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ فَلْيَسْتَجِيبُوا لِي وَلْيُؤْمِنُوا بِي لَعَلَّهُمْ يَرْشُدُونَ) - البقرة: *186*

لاحظ شيئاً بالغ الأهمية في هذه الآية: جاءت وسط آيات الصيام لتقول للمسلم: قبل أن تسألني عن أحكام العبادة اعلم أنني قريب منك جداً، أسمعك وأُجيبك مباشرة دون واسطة. وهذا القرب المباشر من الله هو ما يمنح الإنسان الطمأنينة الحقيقية والصحة الروحية.

وقد أدرك المصلح الديني البروتستانتي مارتن لوثر هذه المشكلة جزئياً حين نادى بالعودة إلى "العلاقة المباشرة مع الله" ورفض الوساطة الكهنوتية، لكنه بقي أسير العقيدة المحرَّفة وأسير الفلسفة الأوروبية في آن واحد، فكان إصلاحه جزئياً لم يصل إلى العلاج الحقيقي.

السبب الثاني: الثنائية الخطيرة بين المقدس والمدنس

من أخطر البنى العقدية التي أسهمت في الأزمة الروحية الغربية ما يُعرف في علم اللاهوت بـ**"ثنائية المقدس والمدنس"** أو بمصطلح أدق ما يُسميه الفيلسوف الفرنسي ميرشيا إلياده بـ"الفصل بين الزمن المقدس والزمن الدنيوي".

فالمسيحية الكنسية أقامت حاجزاً صارماً بين:

- عالم المقدس: الكنيسة والطقوس والأعياد الدينية ورجال الدين
- عالم الدنس: التجارة والسياسة والجسد والأسرة والعمل اليومي

ومعنى ذلك أن الإنسان يكون "في رعاية الله" حين يكون في الكنيسة، وحين يخرج منها يدخل إلى عالم "دنيوي" لا صلة له بالمقدس. فتحوّلت الحياة الروحية إلى جيب منعزل داخل الحياة الكاملة بدلاً من أن تكون روحها وجوهرها.

وحين جاء عصر التنوير وقال: "نحن لا نحتاج إلى الجيب المقدس"، لم يكن الأمر صعباً لأن هذا الجيب كان معزولاً أصلاً ولا يُغذي الحياة الفعلية للناس. فاستأصله التنوير واستمرت الحياة ظاهرياً دون تغيير كبير، لكن مع إفراغ خفي متراكم من المعنى.

في المقابل انظر إلى الإسلام الذي لا يعرف هذه الثنائية أصلاً:

قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "الطُّهور شطر الإيمان، والحمد لله تملأ الميزان، وسبحان الله والحمد لله تملآن أو تملأ ما بين السماوات والأرض، والصلاة نور، والصدقة برهان، والصبر ضياء، والقرآن حجة لك أو عليك، كل الناس يغدو فيبيع نفسه فمعتقها أو موبقها" - رواه مسلم

في هذا الحديث العظيم كل شيء يصبح عبادة: الطهارة عبادة، وحمد الله في أي وقت عبادة، والصلاة والصدقة والصبر والقرآن كلها أدوات الارتقاء الروحي. وبهذا لا يوجد في الإسلام "زمن دنيوي" مفصول عن الروح، بل كل لحظة يمكن أن تكون مقدسة.

بل ذهب الإسلام أبعد من ذلك حين قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "وفي بضع أحدكم صدقة" فقالوا: يا رسول الله، أيأتي أحدنا شهوته ويكون له فيها أجر؟ قال: "أرأيتم لو وضعها في حرام أكان عليه وزر؟ فكذلك إذا وضعها في الحلال كان له أجر" - رواه مسلم

تأمل هذا: حتى الشهوة الجنسية المشروعة تصبح عبادة وصدقة في الإسلام! هذا لأن الإسلام يرفض رفضاً كاملاً فكرة أن ثمة جانباً من الحياة الإنسانية منفصلاً عن الله.

السبب الثالث: تحريف العقيدة وما أنتجه من تناقضات عقلية

لا بد من الحديث بصراحة عن مشكلة عقدية جوهرية في المسيحية الكنسية هي في رأيي من أهم الأسباب الداخلية التي أفضت إلى الأزمة، ألا وهي: عقيدة التثليث والفداء.

فعقيدة التثليث تقول إن الله ثلاثة أقانيم في جوهر واحد: الأب والابن والروح القدس. وعقيدة الفداء تقول إن يسوع المسيح الابن الإلهي صُلب ليفدي خطايا البشر لأن العدل الإلهي يقتضي دماً إلهياً يكفّر عن الخطيئة الأصلية التي اقترفها آدم.

وهذه العقائد عدا كونها من وجهة نظر الإسلام تحريفاً صريحاً للتنزيل الإلهي فإنها تُنتج من الناحية العقلية البحتة تناقضات لا تقبل الحل المنطقي:

كيف يكون الله ثلاثة وواحداً في آن؟ وكيف يكون الابن الإلهي قد "تخلى عنه الأب" كما يقول إنجيل مرقس على الصليب؟ وكيف يُعذَّب العادل بدلاً عن المذنب؟ وكيف يُعقل أن يحتاج الله الكلي القدرة إلى ذبيحة بشرية ليُشبع عدله؟

هذه التناقضات كانت موضع نقد العقلاء منذ القدم، لكن الكنيسة كانت تواجه هذا النقد بالحرق والتعذيب لا بالحوار والاقتناع. وحين جاء عصر العقل ووجد الناس أنفسهم أحراراً في النقد، انهارت هذه العقائد أمام أسئلة بسيطة لم يجد اللاهوتيون إجابة مقنعة لها.

في المقابل انظر إلى ما يقوله الإسلام عن الله:

(قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ * اللَّهُ الصَّمَدُ * لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ * وَلَمْ يَكُن لَّهُ كُفُواً أَحَدٌ) - الإخلاص: *1-4*

أربع آيات قصيرة تُحسم كل التناقضات العقدية: وحدانية مطلقة لا تقبل التثليث، استغناء تام لا يقبل فكرة الابن والأب، تنزّه عن المشابهة لا يقبل الجسدية والصلب. وقد قال العلماء إن هذه السورة تعدل ثلث القرآن لأنها تُجيب بإيجاز معجز عن السؤال الأكبر: من هو الله؟

السبب الرابع: العقيدة الاقتصادية في أصل الخطيئة وأثرها المدمر

من الأسباب البنيوية العميقة للأزمة الروحية الغربية التي لا يتحدث عنها كثيرون: عقيدة الخطيئة الأصلية التي تقول إن كل إنسان يُولد مثقلاً بخطيئة آدم، وأنه بطبيعته خاطئ مُدان.

هذه العقيدة أنتجت في الوجدان الغربي ما أسماه علماء النفس "الذنب الوجودي"، أي شعور الإنسان بأنه خاطئ مذنب بمجرد وجوده، مُدان قبل أن يرتكب أي فعل، يُشار إليه منذ ولادته على أنه يحمل وصمة العار.

وهذا الشعور بالذنب المزمن والعميق له آثار نفسية مدمرة حين لا يُقابَل بعلاج روحي حقيقي، فإما أن يُنتج إنساناً مقهوراً محطماً مليئاً بالعقد، وإما أن يُنتج تمرداً عنيفاً يرفض الدين جملةً وتفصيلاً هرباً من هذا الثقل الذي لا يُحتمل.

وحين جاء فرويد قال للغرب: الذنب الذي تشعر به ليس حقيقياً بل هو كبت اجتماعي مفروض عليك، تحرَّر منه! وهكذا فتح باب "الثورة" على منظومة الدين كله باعتبارها منظومة إنتاج الذنب والكبت.

أما الإسلام فيقدم تصوراً مغايراً جذرياً وأكثر توافقاً مع الفطرة والعقل معاً:

(وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ وَحَمَلْنَاهُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَرَزَقْنَاهُم مِّنَ الطَّيِّبَاتِ وَفَضَّلْنَاهُمْ عَلَى كَثِيرٍ مِّمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلاً) - الإسراء: *70*

الإنسان في الإسلام يُولد مُكرَّماً لا مذنباً، مُفضَّلاً لا ملعوناً، ويُولد على الفطرة النقية كما قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "كل مولود يُولد على الفطرة، فأبواه يُهوِّدانه أو يُنصِّرانه أو يُمجِّسانه" - رواه البخاري ومسلم.

وهذا الفارق الجوهري في نظرة الإنسان إلى نفسه يُنتج نتائج شتى: المسلم يبدأ الحياة من موضع الكرامة والقبول الإلهي ويسعى إلى الصلاح. والإنسان في ظل عقيدة الخطيئة الأصلية يبدأ من موضع الإدانة ويحمل عبئاً وجودياً ثقيلاً منذ اللحظة الأولى.

السبب الخامس: الانفصال بين الوحي والعقل

من أشد الأسباب تأثيراً في تفجير الأزمة الروحية الغربية ما يُسمى بـ**"أزمة الإبستيمولوجيا الدينية"**، أي أزمة طريقة المعرفة الدينية.

فالكنيسة وضعت نفسها في موقف لا يُحسد عليه حين أعلنت أن الكتاب المقدس كلام الله المنزَّل بلفظه الحرفي ومحفوظ من التحريف، ثم ظهر علماء الكتاب المقدس التاريخيون في القرن التاسع عشر أمثال يوليوس فيلهاوزن وغيره وأثبتوا بالأدلة الموثقة أن أسفار العهد القديم والجديد كُتبت في عصور مختلفة وحُرِّفت وعُدِّلت وأن فيها تناقضات تاريخية واضحة.

فوجد الإنسان الغربي المتعلم نفسه في مأزق حقيقي: إما أن يُؤمن بالكتاب المقدس ويتجاهل المعطيات العلمية والتاريخية، وإما أن يقبل المعطيات العلمية ويرفض الكتاب المقدس. ولأن العقل المتنور لا يطيق التناقض، اختار كثيرون رفض الوحي كله.

وحين جاء داروين ببنيته التفسيرية العلمانية للوجود الإنساني، وجد ترحيباً حاراً لأنه قدّم بديلاً يُغني عن وحي يبدو متناقضاً. وهكذا ملأت نظرية التطور الفراغ الذي تركه الوحي المشكوك فيه.

أما الإسلام فيقدم معجزة فريدة في تاريخ الأديان لا يستطيع المنصف إنكارها: القرآن الكريم نص واحد متكامل محفوظ بلفظه الحرفي منذ أربعة عشر قرناً ونيف، يستطيع أي إنسان أن يُقارن أي نسخة من القرآن في العالم بأي نسخة أخرى ليجد أنها كلمة واحدة بحرف واحد. وهذا ليس ادعاءً بل هو حقيقة تاريخية وثقها المستشرقون أنفسهم.

وقد قال المستشرق الألماني تيودور نولدكه الذي قضى حياته في دراسة القرآن ونقده:

"إن القرآن كتاب محفوظ بشكل يفوق أي كتاب مقدس آخر في العالم"

وهذه الحقيقة عن القرآن الكريم تُجيب على إشكالية الوحي والتحريف التي مزّقت الإيمان الغربي.

يقول الله تعالى:

(إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ) - الحجر: *9*

المحور الثالث: الأسباب السياقية التي هيّأت المناخ للأزمة

السبب السادس: ثورة المدينة والانتزاع من البيئة الطبيعية

هذا السبب يغفل عنه الدارسون رغم أهميته البالغة، لأنه يتعلق بالبيئة المادية والطبيعية التي يعيش فيها الإنسان وأثرها العميق في حياته الروحية.

الإنسان على مدار التاريخ كله كان يعيش في بيئة طبيعية: يرى السماء والأرض والنجوم والأشجار والأنهار، ويسمع أصوات الطبيعة ويشم روائحها، ويرى بعينيه تعاقب الليل والنهار والفصول. وهذا التواصل اليومي مع الطبيعة كان يُغذي حسه بعظمة الخالق ويُذكِّره بضعفه البشري وصغره أمام هذا الكون الرهيب.

قال الله تعالى:

(إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ لَآيَاتٍ لِّأُولِي الْأَلْبَابِ * الَّذِينَ يَذْكُرُونَ اللَّهَ قِيَاماً وَقُعُوداً وَعَلَى جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَذَا بَاطِلاً) - آل عمران: *190-191*

التفكر في الكون يُولِّد الإيمان بالله. وهذا لم يكن يحتاج إلى برهان بالنسبة للإنسان الذي يعيش في الطبيعة يرى الشروق والغروب ويعاين الفصول.

ثم جاءت الثورة الصناعية في أواخر القرن الثامن عشر وبداية القرن التاسع عشر وانتزعت الإنسان من هذا الوسط الطبيعي بسرعة مذهلة. في ستة عقود فقط تحوّل نصف الإنجليز من الريف إلى المدن، وعاشوا في أحياء مكتظة موحشة محاطة بالدخان الأسود ورائحة المصانع ومحاطة بحيطان الطوب من كل جانب لا يرون السماء إلا شريطاً ضيقاً فوق رؤوسهم.

والأثر الروحي لهذا التحول كان ضخماً جداً: الإنسان الذي لا يرى الكون لا يتفكر فيه، والذي لا يتفكر في الكون تضعف عنده حساسية الاتصال بالخالق. الإنسان المدني الحديث يعيش في بيئة اصطناعية كاملة من صنع الإنسان، المباني والطرق والكهرباء والإنترنت وكل شيء، فيُحسّ في لا وعيه أن الإنسان هو القادر على كل شيء وأنه لا يحتاج إلى شيء يتجاوزه.

وهذه هي بالضبط بداية الطغيان الذي وصفه القرآن:

(كَلَّا إِنَّ الْإِنسَانَ لَيَطْغَى * أَن رَّآهُ اسْتَغْنَى) - العلق: 6-7

حين يرى الإنسان نفسه مستغنياً لأنه يعيش في وسط يُبدو له أنه من صنعه هو وأمثاله لا من صنع الله، يطغى ويتكبر. والمدينة الحديثة هي البيئة المثلى لإنتاج هذا الإحساس الزائف بالاستغناء.

السبب السابع: ثورة الطباعة والانفجار المعلوماتي غير الموجَّه

في عام 1440 اخترع يوهانس غوتنبرغ المطبعة في أوروبا، وكان هذا الاختراع على أهميته التقنية قنبلة روحية وثقافية لم يحسب لها أحد حساباً.

فقبل المطبعة كانت المعرفة محصورة في طبقتين: رجال الدين الذين يقرؤون اللاتينية ويحتكرون تفسير الكتاب المقدس، والنخبة الأرستقراطية التي تعلمت. أما عامة الناس فكانوا يتلقون الدين بشكل شفهي من رجال الدين ويقبلونه على ثقة.

ثم جاءت المطبعة وانتشر الكتاب بسرعة مذهلة، وتُرجم الكتاب المقدس إلى اللغات الأوروبية الشعبية، وبدأ الناس يقرؤونه بأنفسهم. وهنا بدأ الخلاف العقدي ينتشر، لأن نصاً محرَّفاً حين يقرأه كل إنسان بعيداً عن السياق اللاهوتي يُنتج تفسيرات متضاربة، وقد وُجدت في خمسين عاماً من إصلاح لوثر مئات الفرق البروتستانتية المتناحرة.

والأهم من ذلك أن المطبعة أنتجت انفجاراً في المعلومات لم يكن له ضابط روحي أو منهجي. كل شخص بات يستطيع أن يطبع أفكاره وينشرها، وكان من بين ما طُبع مقولات إلحادية وشكوكية وإباحية لم تكن تصل إلى الناس قبلاً.

وإذا قاربنا هذا بواقعنا المعاصر يمكننا أن نُدرك أن الإنترنت ومنصات التواصل الاجتماعي هي "مطبعة القرن الواحد والعشرين" ولكن بحجم أضخم بملايين المرات، وقد أنتجت نفس الأزمة ولكن بدرجة أشد حدةً.

السبب الثامن: النزاع داخل الكنيسة بين العقل والنقل

من الأسباب التي تُكشف عن عمق الأزمة داخل المؤسسة الدينية الغربية ذاتها ما يُعرف بـ**"صراع الإيمان والعقل"** الداخلي الذي عاشته الكنيسة على مدى قرون.

المفكر الكاثوليكي توماس الأكويني في القرن الثالث عشر حاول التوفيق بين الإيمان المسيحي والعقل الأرسطي في مشروع ضخم عُرف بـ"الفلسفة المدرسية" أو الاسكولاستية، وقد أنتج بناءً فلسفياً لاهوتياً ضخماً بُنيت عليه الكنيسة الكاثوليكية قروناً.

لكن هذا البناء كان يحمل بذور انهياره الداخلي لسبب بسيط: حين تحاول التوفيق بين نص ديني محرَّف وفلسفة بشرية ناقصة، ينتهي بك الأمر إلى بناء هش يتداعى حين تتطور الفلسفة أو يُكشف على تناقضات النص.

وهذا بالضبط ما حدث: حين جاء ديكارت في القرن السابع عشر بفلسفة العقل الجديدة وتزعزعت أسس الأرسطية، انهارت معها ركائز الاسكولاستية، وأُصيب البناء اللاهوتي بأضرار جسيمة.

وقد أشار ابن رشد قبلهم بقرون إلى هذا الخطأ المنهجي حين قال إن الشريعة الصحيحة لا يمكن أن تتعارض مع العقل الصحيح، لأن كليهما من مصدر واحد. لكن هذه الحقيقة لم تجد آذاناً غربية مصغية في وقتها، وكتب ابن رشد انتشرت في أوروبا باللاتينية لكن أكثر الأوروبيين لم يُدركوا أن الرجل نفسه كان يُمثِّل نموذجاً لوحدة الإيمان والعقل التي يبحثون عنها.

الإسلام يحل هذه المعضلة من جذورها بأن النص المصون من التحريف لا يتناقض أبداً مع العقل الصحيح. والتاريخ شاهد على ذلك: حضارة الإسلام في ذروتها من القرن الثامن إلى الثالث عشر الميلادي جمعت أعمق الإيمان بالله وأرقى الإنتاج العلمي في آن واحد، من الخوارزمي في الرياضيات إلى ابن سينا في الطب إلى ابن الهيثم في الفيزياء إلى الإدريسي في الجغرافيا، كلهم كانوا علماء مؤمنين يرون في العلم عبادة لله.

المحور الرابع: الأسباب الفكرية والفلسفية بتعمق أكبر

السبب التاسع: الشك المنهجي وما أفضى إليه

في عام 1637 نشر الفيلسوف الفرنسي رينيه ديكارت كتابه "مقال في المنهج" الذي ضمّنه عبارته الشهيرة: "أنا أفكر إذن أنا موجود". وكان ديكارت يُريد ببناء الفلسفة على أساس متين من خلال الشك المنهجي في كل شيء حتى لا يبقى إلا ما لا يمكن الشك فيه.

لكن هذا المنهج كان بذرة خطيرة: حين تجعل الشك نقطة انطلاق ومبدأ منهجياً، وحين تجعل العقل الفردي هو المرجعية الأخيرة التي لا تقبل فوقها سلطة، فأنت تهدم الأساس الضروري للإيمان وهو الثقة والتسليم.

ثم جاء الفيلسوف الاسكتلندي ديفيد هيوم في القرن الثامن عشر ليذهب إلى أبعد من ذلك، إذ شكك في إمكانية معرفة أي شيء بيقين تام، وهاجم بصورة خاصة فكرة المعجزات وإمكانيتها، ووضع معياراً شهيراً لا يزال يُدرَّس في الجامعات حتى اليوم يقول: "أي شهادة قوية بما يكفي تُثبت ادعاء خارقاً". وطبّق هذا على معجزات الأنبياء مُشككاً فيها جميعاً.

ثم جاء إيمانويل كانط في ألمانيا ليقول في كتابه "نقد العقل الخالص" إن عقل الإنسان لا يستطيع إثبات وجود الله ولا نفيه، لأن الله "شيء في ذاته" يتجاوز قدرة الفهم البشري، وأن الإيمان الديني يجب أن يظل في نطاق "العقل العملي" وهو نطاق الأخلاق لا العقل النظري. وهكذا أحكم كانط الفصل بين الإيمان والمعرفة وجعل الدين مسألة شخصية غير قابلة للبرهان العقلي.

هذه الفلسفات الثلاث متراكمة أنتجت في الوجدان الغربي قناعة راسخة: الله فرضية غير قابلة للبرهان وبالتالي يمكن الاستغناء عنها في بناء المعرفة والحضارة. وهذه القناعة هي ما يُسميه المفكرون بـ"الأجندة العلمانية" التي هيمنت على الجامعات والمؤسسات الغربية منذ القرن التاسع عشر.

والرد الإسلامي على هذا يأتي من طريقين:

الأول: أن القرآن الكريم نفسه يُقدِّم براهين عقلية على وجود الله وتوحيده لا تقوم على التسليم الأعمى:

(أَمْ خُلِقُوا مِنْ غَيْرِ شَيْءٍ أَمْ هُمُ الْخَالِقُونَ) - الطور: *35*

هذه الآية دليل عقلي صارم: إما أن يكون الإنسان خُلق من لا شيء وهو محال عقلاً، وإما أن يكون خلق نفسه وهو محال عقلاً، وإما أن يكون هناك خالق له وهو الله. وهذا برهان الإمكان الذي بنى عليه علماء الكلام المسلمون صروحاً عقلية متينة.

الثاني: أن الإسلام يُميِّز بين الشك الإيجابي المنهجي الذي يُؤدي إلى اليقين، وبين الشك العدمي المفضي إلى الضياع. والإسلام يدعو إلى التدبر والتفكر لا إلى الإيمان الأعمى:

(أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ أَمْ عَلَى قُلُوبٍ أَقْفَالُهَا) - محمد: *24*

السبب العاشر: ثورة الإعلام وصناعة الإنسان الاستهلاكي

من الأسباب المعاصرة التي أعمقت الأزمة الروحية بصورة لم يشهدها التاريخ من قبل: ظهور صناعة الإعلام الحديثة وما تبعها من وسائل التواصل الاجتماعي في القرن العشرين والحادي والعشرين.

الإعلام الاستهلاكي الغربي بُني على معادلة بسيطة من منظور الأعمال التجارية: للبيع تحتاج إلى خلق الحاجة أولاً، وللترويج تحتاج إلى خلق الاستياء من الواقع الحالي. وهكذا بُنيت صناعة الإعلام والإعلانات على أساس إنتاج الشعور بالنقص والحاجة والاستياء بصفة مستمرة.

الإعلان يقول للإنسان بصورة مباشرة أو ضمنية: أنت ناقص، جسمك ليس مثالياً، سيارتك قديمة، ملابسك لا تعكس شخصيتك، حياتك أقل مما تستحق. وهذا الإعلان المتواصل على مدار ساعات الاستيقاظ كلها يُنتج إنساناً في حالة نقص مزمن لا يشبع ولا يرضى.

والقرآن الكريم وصف هذه الحالة بدقة:

(أَلْهَاكُمُ التَّكَاثُرُ * حَتَّى زُرْتُمُ الْمَقَابِرَ) - التكاثر: *1-2*

التكاثر في كل شيء: في المال والمتاع والأرقام والمتابعين والإعجابات، ألهى الإنسان عن كل ما هو حقيقي وعميق حتى جاءه الموت ووجد نفسه فارغاً.

وقد كشف المفكر الكندي مارشال ماكلوهان في ستينيات القرن العشرين في كتابه الثوري "الوسيط هو الرسالة" حقيقة عميقة: وسيلة الإعلام بغض النظر عن مضمونها تُعيد تشكيل طريقة تفكير الإنسان وإحساسه بالعالم. التلفزيون مثلاً لا يُؤثر فقط بما يعرضه بل يُؤثر بطريقة العرض نفسها التي تُعوِّد الإنسان على الصور المتلاحقة والمختصرة والمرئية وتُضعف قدرته على التأمل والقراءة العميقة والتفكير المستدام.

وهذا ما أفرز ما أسماه المفكر الأمريكي نيل بوستمان في كتابه "الترفيه حتى الموت" بـ"ثقافة الترفيه" حيث أصبح كل شيء يجب أن يُقدَّم بصورة ترفيهية وإلا فَقَد جمهوره. وهذا يعني عملياً أن الفكر العميق والروحانية الجادة وأسئلة الوجود الكبرى أصبحت خارج دائرة الاهتمام الجماهيري في المجتمعات الغربية.

السبب الحادي عشر: تدمير الأسرة وما ترتب عليه

الأسرة في كل الأديان والحضارات هي الخلية الأولى للتنشئة الروحية، فيها يتعلم الإنسان أول دروسه في الحب والتضحية والمسؤولية والانتماء والتواضع والخدمة. وحين تنهار الأسرة تنهار معها البنية التحتية الروحية للمجتمع.

والغرب عاش في القرن العشرين موجات متتالية من تدمير الأسرة، ليست من قبيل الصدفة بل كانت نتيجة حتمية لمنظومة فكرية تُقدِّس الفردية على حساب الجماعة، والحرية اللامحدودة على حساب المسؤولية، واللحظة الراهنة على حساب الالتزام المستقبلي.

موجة الطلاق المتصاعدة: في الولايات المتحدة وصل معدل الطلاق إلى خمسين بالمئة من الزيجات في بعض الحقب، أي أن كل زيجتين إحداهما تنتهي بالطلاق. وأثر ذلك على الأطفال موثق في آلاف الدراسات: اضطرابات سلوكية وعاطفية وصعوبات في التعلق وإشكاليات في بناء العلاقات مستقبلاً.

موجة عدم الزواج: نسبة الشباب الذين يُحجمون عن الزواج كلياً ترتفع باطراد في أوروبا وأمريكا واليابان. الجيل الجديد الذي نشأ يرى الزواج مغامرة غير محسوبة وقيداً على الحرية، فيفضل العلاقات العابرة أو العيش منفرداً. والنتيجة وحدة عميقة وانعدام انتماء ورعاية في الشيخوخة.

موجة تذويب الهوية الجنسية: أنتجت الأيديولوجيا الجندرية الحديثة التي تقول إن الجنس مجرد "بناء اجتماعي" يمكن اختياره وتغييره، حالة من الضياع الهوياتي الحاد لدى الأجيال الصغيرة التي لم تجد هويةً ثابتة تقف عليها.

وقد قال الله تعالى:

(وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَاجاً لِّتَسْكُنُوا إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُم مَّوَدَّةً وَرَحْمَةً إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ) - الروم: 21

السكن والمودة والرحمة: هذه الثلاثة التي يُقدِّمها الإسلام كمقاصد عليا للزواج هي بالضبط ما يبحث عنه الإنسان الغربي في وسط فوضى العلاقات، ولا يجده لأنه يبحث عنه في المكان الخطأ.

المحور الخامس: الفلسفات الوجودية وأثرها في تعميق الأزمة

السبب الثاني عشر: العدمية الوجودية وسقف المعنى المنخفض

حين انهارت المنظومة الدينية في الغرب لم يكن الفراغ الذي تركته شاغراً لفترة طويلة، بل سارع الفلاسفة إلى ملئه بفلسفات وجودية متنوعة، وكانت أبرزها وأكثرها تأثيراً في القرن العشرين الوجودية الفرنسية التي يمثلها جان بول سارتر وسيمون دو بوفوار وألبير كامو.

وقد لخّص سارتر فلسفته في جملة مشهورة: "الوجود يسبق الماهية"، يعني بذلك أن الإنسان لا يُولد بطبيعة أو معنى مسبق، بل يخلق معناه هو بنفسه عبر خياراته الحرة. وكان يُقابل بهذا الرأي العقيدة الدينية التي تقول إن الإنسان خُلق بطبيعة وماهية وهدف محدد من قِبل خالقه.

وهذه الفلسفة في ظاهرها تبدو منحة للحرية، لكنها في حقيقتها تُلقي عبئاً ثقيلاً على كاهل الإنسان: ما دام لا معنى مسبقاً لوجودك فأنت وحدك مسؤول عن خلق هذا المعنى، وهذه المسؤولية الوجودية الكاملة أنتجت ما وصفه سارتر نفسه بـ"القلق الوجودي" و"الغثيان" وهو إحساس مقبض بعبثية الوجود حين لا تستطيع تبريره لنفسك.

وقد جسّد سارتر هذه الحالة في روايته "الغثيان" التي يشعر فيها بطلها روكنتان بغثيان وجودي مزمن حين يتفكر في أي شيء: في حجر عادي، في شجرة، في يده نفسها. كل شيء يبدو له وجوده فائضاً وغير ضروري وعبثياً.

وهذا الغثيان الوجودي الذي وصفه سارتر في روايته ليس مجرد حالة أدبية بل هو تشخيص لواقع ملايين البشر في الغرب الذين يُعانون مما أصبح يُعرف في علم النفس بـ"فراغ الوجود" أو "العدمية الشخصية".

وقد عاش سارتر حياة عملية تكشف التناقض الكامل في فلسفته: دعا إلى الحرية المطلقة وعاش في علاقة مفتوحة مع دو بوفوار طوال حياته، لكنه أقرّ في نهاية عمره بأن هذه "الحرية" لم تُعطه ما كان يبحث عنه. وحين سُئل قبيل وفاته عن مشاعره قال: "أشعر بأنني لم أعش حياةً بل كنت أُراقب حياتي من بعيد".

وما أروع وأعمق ما يقوله الإسلام في مقابل هذا الغثيان الوجودي:

(أَلَا بِذِكْرِ اللَّهِ تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ) - الرعد: 28

ليس بالمال تطمئن القلوب، وليس بالفلسفة وليس بالحرية المطلقة وليس بالشهرة، بل بذكر الله وحده. وهذا ليس قولاً دينياً عاطفياً بل هو وصف دقيق للبنية النفسية للإنسان التي أقرّ بها حتى الملحدون من علماء النفس.

السبب الثالث عشر: الفردانية المتطرفة وتدمير البنى الجماعية

من الأسباب الفلسفية العميقة التي أفضت إلى الأزمة الروحية ما يُسمى بـ"ثورة الفردية" أو في صياغتها الأدق "الأتمية الاجتماعية" أي تحويل المجتمع إلى ذرات فردية منفصلة لا روابط حقيقية بينها.

هذه الأتمية الاجتماعية بدأت فكرياً مع عقد جان جاك روسو الاجتماعي الذي يُؤسِّس المجتمع على العقد بين الأفراد لا على الروابط الطبيعية والروحية، ووصلت إلى ذروتها مع الليبرالية الغربية المتأخرة التي تتعامل مع الإنسان أساساً بوصفه فرداً له حقوق لا كائناً اجتماعياً له واجبات وروابط.

وقد عبّرت رئيسة الوزراء البريطانية مارغريت ثاتشر عن هذه الفلسفة بصراحة مذهلة حين قالت عام 1987:

"لا يوجد شيء اسمه المجتمع، هناك أفراد ورجال ونساء وأسر"

هذه الجملة التي أثارت جدلاً واسعاً تكشف الفلسفة الضمنية لليبرالية الغربية: الوحدة الحقيقية هي الفرد، والمجتمع مجرد مجموع أفراد لا كيان روحي وعضوي مستقل.

وقد أنتجت هذه الفلسفة ظواهر موثقة:

انهيار رأس المال الاجتماعي: وثّق عالم السياسة الأمريكي روبرت بوتنام في كتابه الشهير "البولينغ منفرداً" تراجعاً مطرداً في كل أشكال الانتماء الجماعي في أمريكا: الأندية المحلية، والجمعيات المدنية، والاجتماعات الدينية، والمشاركة السياسية الفاعلة. ووجد أن هذا التراجع يُؤدي إلى ضعف الثقة الاجتماعية وارتفاع معدلات الجريمة والاكتئاب والمرض.

ظاهرة "التحيز التأكيدي" عبر الإنترنت: الإنسان اليوم يختار بنفسه وسائل الإعلام والمجموعات الاجتماعية التي يتابعها وفق أيديولوجيته الخاصة، فيعيش في "فقاعة" معلوماتية لا يرى فيها إلا ما يُؤكد قناعاته، وهذا يُؤدي إلى انقسامات اجتماعية حادة ونقص في الحوار الحقيقي.

وما أعمق وأجمل التصور الإسلامي للإنسان بوصفه كائناً اجتماعياً بامتياز:

قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "مثل المؤمنين في توادهم وتراحمهم وتعاطفهم مثل الجسد إذا اشتكى منه عضو تداعى له سائر الجسد بالسهر والحمى" - رواه البخاري ومسلم

هذا ليس مجرد كلام جميل بل هو تصور متكامل للمجتمع كجسد واحد تربط أعضاءه رابطة روحية حقيقية، وهذا بالضبط ما يفتقر إليه الإنسان الغربي في مدنيته الذرية.

المحور السادس: أسباب تتعلق بالنموذج التنموي الغربي ذاته

السبب الرابع عشر: الاقتصاد الذي يلتهم الروح

من أعمق الأسباب التي أسهمت في الأزمة الروحية الغربية النموذج الاقتصادي الرأسمالي الليبرالي بكل ما أنتجه من ثقافة وقيم وأولويات.

الاقتصاد الرأسمالي في جوهره يُرسي قيمة الإنسان على معيار واحد: قدرته الإنتاجية والاستهلاكية. الإنسان القيّم هو المنتج والمستهلك، والإنسان العاجز عن الإنتاج أو الاستهلاك يُصبح هامشياً لا قيمة له. ومن هنا جاء الازدراء الثقافي الضمني للشيخوخة والعجز والمرض في المجتمعات الرأسمالية.

وهذا ينتج إنساناً يُعرِّف هويته بإنجازاته ومقتنياته: "أنا ما أملك" بدلاً من "أنا من أكون". وحين يفقد هذا الإنسان عمله أو مقتنياته أو قدرته الإنتاجية يُصاب بأزمة هوية حادة، لأنه لا يعرف من هو بمعزل عما يفعله ويملكه.

والأخطر من ذلك أن النظام الرأسمالي لا يستطيع العمل بكفاءة إلا في ظل ثقافة الاستياء المزمن، لأن الإنسان الراضي المكتفي لا يستهلك بما يكفي لتشغيل ماكينة الإنتاج. فالإعلان التجاري مهمته الأولى خلق السخط على الواقع والشوق إلى ما هو أفضل وأحدث وأجمل. وهكذا يعيش الإنسان في حالة تعطش مزمن لا يُروى.

وقد لاحظ هذا المفارقة الباحث الأمريكي باري شوارتز في كتابه "مفارقة الاختيار": حين تُعطي الإنسان خيارات لا نهاية لها في كل شيء من البضائع إلى العلاقات إلى أنماط الحياة، فإن ذلك لا يُعطيه السعادة بل يُصيبه بالشلل والتعاسة، لأنه لا يزال يتساءل: هل كان الخيار الآخر أفضل؟ هل فاتني شيء أحسن مما اخترت؟

وهذا ما يُسميه بـ"ندم الاختيار" وهو إحساس بالأسف على ما لم يُختَر حتى حين يكون ما اختاره جيداً. وهذا الإحساس أصبح صفة ثقافية عامة في مجتمعات الوفرة الغربية.

في المقابل يُقدِّم الإسلام قيمة روحية تحل هذه المشكلة جذرياً: القناعة والرضا بما قسم الله مع السعي الجاد في الحلال:

قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "قد أفلح من أسلم ورُزق كفافاً وقنّعه الله بما آتاه" - رواه مسلم

والقناعة في الإسلام ليست كسلاً ولا انعدام طموح، بل هي حالة الرضا الداخلي التي تمنع الإنسان من أن يكون عبداً لشهواته وضحية للتسويق. وهذا الرضا لا يتعارض مع السعي في الرزق، فالإسلام يدعو إلى العمل والإنتاج ويمدح الكسب الحلال، لكنه لا يجعل من العمل والإنتاج غاية في ذاتها تستعبد الروح.

السبب الخامس عشر: انفجار التكنولوجيا وتغييب التأمل

من أشد الأسباب المعاصرة تأثيراً في تعميق الأزمة الروحية ما أنتجته ثورة التكنولوجيا الرقمية من تغيير جذري في طريقة عيش الإنسان وتفكيره وإحساسه بالزمن.

الهاتف الذكي الذي أصبح امتداداً لجسم الإنسان لا أداةً يستخدمها أحدث تحولاً عميقاً في عدة مستويات:

على مستوى الانتباه والتركيز: دراسات متعددة أثبتت أن متوسط مدة الانتباه لدى الإنسان الغربي انخفضت من اثنتي عشرة ثانية عام 2000 إلى ثماني ثوانٍ عام 2015، أي أقل من مدة انتباه السمكة. وهذا ليس نكتة بل حقيقة موثقة تعني أن الإنسان فقد القدرة على التأمل العميق والتفكير المستمر.

على مستوى التواصل الاجتماعي: وسائل التواصل الاجتماعي صممت بقصد مُتعمد لاستغلال الدوبامين وهو هرمون المكافأة في الدماغ البشري. كل "إعجاب" يحصل عليه الإنسان يُطلق جرعة صغيرة من الدوبامين تجعله يعود للبحث عن المزيد، وهذا بالضبط هو الآلية نفسها لإدمان المخدرات. وقد أقرّ شون باركر مؤسس فيسبوك بهذا صراحة حين قال: "كنا نستغل ضعفاً في النفس البشرية".

على مستوى الوحدة: ومن المفارقات المؤلمة أن وسائل التواصل الاجتماعي التي وُعد بها بأنها ستُوصِّل الناس ببعض أثبتت الدراسات أنها زادت شعور الوحدة والعزلة، لأنها تُعطي وهم الاتصال دون حقيقته. فالإنسان يتابع مئات "الأصدقاء" ومع ذلك يشعر في داخله أن لا أحد يعرفه حقاً.

خاتمة الجزء الأول القسم الثاني: ربط الأسباب ببعضها

حين نُراجع هذه الأسباب الخمسة عشر التي ناقشناها نجد أنها ليست مستقلة بل متشابكة ومتراكبة تغذي بعضها بعضاً في دوامة واحدة:

التحريف الديني أدى إلى الثورة على الدين، والثورة على الدين أفرزت الفلسفات المادية، والفلسفات المادية أنتجت الفردانية والعدمية، والفردانية دمرت الأسرة والبنى الاجتماعية، وانهيار البنى الاجتماعية أفرز الوحدة والاكتئاب، والوحدة والاكتئاب دفعا إلى الهروب بالمخدرات والإباحية والتفاهات، والهروب عمّق الفراغ الروحي وأنتج الأزمة.

وفي نهاية هذه الدوامة يجد الإنسان الغربي نفسه في نقطة بدأ منها الإنسان الأول: يبحث عن معنى لوجوده، يبحث عمّن يسمعه حقاً، يبحث عن انتماء يتجاوز المصلحة المادية، يبحث عن يقين يقف عليه في مواجهة هشاشة الحياة وثقل الموت.

وهذه المطالب كلها بالضبط هي ما يُقدِّمه الإسلام وما يدعو إليه. وليس من قبيل الصدفة أن أسرع الأديان انتشاراً في الغرب اليوم هو الإسلام، في الوقت الذي تتقلص فيه أعداد الكنائس وترتفع أعداد الملحدين.

ففي فرنسا وحدها يدخل في الإسلام سنوياً ما يزيد على خمسة وعشرين ألف شخص، وأغلبهم من المتعلمين الباحثين عن إجابات حقيقية لأسئلة حقيقية وجدوها في القرآن والسنة.

(وَيَرَى الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ الَّذِي أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ هُوَ الْحَقَّ وَيَهْدِي إِلَى صِرَاطِ الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ) - سبأ: 6

المفكرون الإسلاميون وتشخيصهم للأزمة الروحية الغربية

دراسة في عمق الرؤية الحضارية الإسلامية

مدخل: لماذا صوت المفكر المسلم أعمق وأشمل؟

قبل أن نستعرض ما قاله المفكرون الإسلاميون في هذه المسألة الكبرى، لا بد من وقفة منهجية مهمة: الفارق الجوهري بين المفكر الإسلامي وغيره في تناول هذه الأزمة ليس فارقاً في الذكاء أو سعة الاطلاع فحسب، بل هو فارق في المنطلق والمرجعية والأفق.

المفكر الغربي حين ينقد حضارته يفعل ذلك من داخلها وبأدواتها، فنقده مهما بلغ عمقه يبقى في دائرة مغلقة لأنه لا يملك مرجعية خارجة عن هذه الدائرة يستند إليها. أما المفكر الإسلامي فإنه ينظر إلى الأزمة الغربية من مرتفع يمنحه إياه الوحي الرباني المحفوظ، فيرى ما لا يراه المحاصر داخل الدائرة، ويُشخِّص ما يعجز المريض عن تشخيصه في نفسه.

وهذا لا يعني أن المفكرين المسلمين معصومون أو أنهم كلهم على درجة واحدة من العمق والصواب، بل يعني أن لديهم إمكانية الوصول إلى مرجعية كلية ربانية تُعطي تشخيصاتهم بُعداً حضارياً مختلفاً نوعياً عن التشخيصات الغربية.

أولاً: مالك بن نبي - المفكر الذي فكّك الحضارة الغربية من الجذور

من هو مالك بن نبي؟

ولد المفكر الجزائري الكبير مالك بن نبي عام *1905* في قسنطينة الجزائر في ظل الاستعمار الفرنسي، وتلقى تعليمه في فرنسا حيث درس الهندسة الكهربائية، وعاش في قلب الحضارة الغربية سنوات طويلة، مما أعطاه ميزة استثنائية: أنه عرف هذه الحضارة من الداخل لا من خلف الكتب والأوصاف.

ثم عاد بعقل ناضج وروح مؤمنة وأدوات تحليلية متينة ليُنتج أعمقَ نقد حضاري أنتجه مفكر مسلم في القرن العشرين، في سلسلة من الكتب الكبرى من بينها "شروط النهضة" و"مشكلة الأفكار في العالم الإسلامي" و"وجهة العالم الإسلامي" و"الصراع الفكري في البلاد المستعمَرة".

تشخيص مالك بن نبي للأزمة الغربية

أولاً: مفهوم القابلية للاستعمار ومفهوم الحضارة

أسهم مالك بن نبي بمفهوم جوهري ابتكره هو نفسه وهو "القابلية للاستعمار"، ومعناه أن الاستعمار لا يحدث فقط بسبب قوة المستعمِر الخارجية بل يحدث لأن المستعمَر يحمل في داخله شروط قابليته للاستعمار.

لكن الأهم من ذلك أن مالك بن نبي أدرك أن الأزمة التي تعانيها الشعوب المستعمَرة لها نظيرها في الحضارة الغربية ذاتها، وإن كانت تتجلى بصورة مختلفة. فالغرب يعاني من ما أسماه "قابلية الاستعمار الداخلي" أي استعمار الإنسان من قِبل الآلة والسوق والنظام المادي الذي بناه بيده.

قال مالك بن نبي بعبارة بالغة العمق:

> "المشكلة ليست في الحضارة الغربية بما أنتجته من علم وتقنية، بل في الروح التي تحرك هذه الحضارة، روح تجعل من الإنسان خادماً للآلة لا سيداً عليها، ومن الحياة سباقاً نحو الملذات لا رحلة نحو الكمال. وهذه الروح فقدت مرساها حين انفصلت عن الله"

ثانياً: مثلث الحضارة

ابتكر مالك بن نبي مفهوم "مثلث الحضارة" وهو يقول إن كل حضارة تقوم على ثلاثة عناصر هي: الإنسان، والتراب، والوقت. لكن هذه العناصر الثلاثة لا تُنتج حضارة إلا حين تجمعها "روح الدين" التي تُعطيها المعنى والاتجاه والطاقة الداخلية.

والحضارة الغربية في تشخيص مالك بن نبي امتلكت العناصر الثلاثة بل طورتها إلى أقصى حد، لكنها فقدت الروح الجامعة. فأصبحت كآلة متطورة بلا كهرباء تُحركها، تمتلك كل شيء وتقدر على كل شيء لكنها لا تعرف لماذا وإلى أين.

وكتب في "شروط النهضة":

> "إن الحضارة الغربية تحمل في طياتها بذور انهيارها الداخلي، لأنها أرادت أن تبني الإنسان دون الله، وأن تُقيم الحضارة دون الروح، وهذا كمن يريد أن يُشعل النار دون الأكسجين، قد يُوجَد كل شيء آخر لكن النار لن تشتعل"

ثالثاً: نقده لفكرة التقدم الخطي

من أعمق ما قاله مالك بن نبي نقده لما أسماه "وثن التقدم"، وهو الفكرة التي آمن بها الغرب إيماناً شبه ديني وهي أن التاريخ يسير دائماً نحو الأفضل، وأن التطور التقني يُعني بالضرورة التطور الإنساني.

قال مالك بن نبي:

"الغرب جعل من فكرة التقدم ديناً بديلاً عن الأديان التي ألقاها خلف ظهره، وكل دين بديل مصيره الفشل لأنه لا يستطيع أن يُعطي الإنسان ما يُعطيه الدين الحق: اليقين في مواجهة الموت، والمعنى في مواجهة المعاناة، والتواضع في مواجهة الغرور. وحين فشل وثن التقدم في إعطاء هذه الأشياء وجد الإنسان الغربي نفسه وحيداً أمام أسئلته الكبرى التي لا مفر منها"

رابعاً: التشخيص الختامي

في كتابه "وجهة العالم الإسلامي" يصل مالك بن نبي إلى خلاصة تشخيصية كبرى:

"العالم الغربي يعاني من ما يمكن تسميته بـ'أزمة الغائية' أي أزمة الهدف والغاية. إنه يعرف كيف يصنع وكيف ينتج وكيف يكتشف، لكنه لا يعرف لماذا. والإنسان الذي لا يعرف لماذا يعمل كالسهم الذي أُطلق بقوة هائلة لكن في اتجاه لا هدف وراءه. والإسلام هو الوحيد الذي يُجيب على سؤال اللماذا بإجابة تُرضي العقل وتُشبع الروح وتُحرك الإرادة في آن واحد"

ثانياً: محمد إقبال - فيلسوف الروح وشاعر اليقين

من هو محمد إقبال؟

محمد إقبال الشاعر والفيلسوف الباكستاني الكبير الذي وُلد عام *1877* في سيالكوت، وتلقى تعليمه في كمبريدج وميونيخ وحصل على الدكتوراه في الفلسفة من ألمانيا، ثم عاد ليُصبح أحد أعمق مفكري الإسلام في القرن العشرين وأحد أبرز أشعائه. يكفيه أنه المفكر الذي وضع أسس فكرة دولة باكستان، وأن شعره بالأردية والفارسية يُعدّ من أعظم ما أنتجه الفكر الإسلامي الحديث.

تشخيص إقبال للأزمة الغربية

أولاً: نقد الأنا الغربية المتضخمة

كرّس إقبال جزءاً كبيراً من فلسفته لما أسماه "فلسفة الخودي" أي فلسفة الذات أو الأنا، وكان يُميِّز بين نوعين من الأنا:

الأنا المتضخمة الغربية: التي تجعل من الإنسان محور الكون ومرجع كل شيء، وتقوم على الغرور والاستغناء عن الله والتعامل مع الآخرين كأدوات.

الأنا المتكاملة الإسلامية: التي تقوم على الخلافة في الأرض، أي أن الإنسان سيد حين يكون عبداً لله، وقوي حين يستمد قوته من الإيمان، ومتكامل حين يوحد ظاهره وباطنه وعلاقته بالله وبالناس.

وقد وصف الغرب في شعره بعبارات لاذعة وجميلة في آن:

"الحضارة الغربية كالسيف الذي يقطع بحدته لكن ليس له قائمة يُمسكه من يحمله بأمان. أنتجت كل شيء إلا القلب الذي يُوجِّه هذا الإنتاج نحو الخير"

ثانياً: نقد العقلانية الجافة

في كتابه الفكري الكبير "تجديد الفكر الديني في الإسلام" الذي ترجمه كثيرون وأثّر في أجيال من المفكرين المسلمين، يتناول إقبال بالنقد العميق الفلسفة الغربية الحديثة وخاصة الكانطية وما نتج عنها.

يقول إقبال:

"ارتكبت الفلسفة الغربية خطيئة فادحة حين فصلت بين العقل والروح وبين الفكر والتجربة الدينية المباشرة. وجعلت من الدين مجرد فكرة في الذهن بدلاً من أن يكون تجربة حية في القلب. والإسلام يرفض هذا الفصل جذرياً لأن اليقين الديني الحقيقي ليس نتيجة برهان منطقي فحسب بل هو يقين الروح التي اتصلت بخالقها"

وفي موضع آخر يقول في نقد الحضارة الغربية بصورة شعرية عميقة:

"أيها الغرب المغرور بعلمك وصناعتك، ألا تسمع أنين الروح الإنسانية تحت أثقال حضارتك؟ بنيت الأبراج لكنك نسيت البيوت، ورصفت الطرق لكنك نسيت الوجهة، وملأت الحياة بالضوضاء لكنك قتلت الصمت الذي فيه يتكلم الله"

ثالثاً: رؤيته للخروج من الأزمة

يرى إقبال أن الخروج من الأزمة الغربية لن يكون إلا بإعادة اكتشاف الإنسان لـ**"مكانته الخلافية"**، أي أن يفهم الإنسان من جديد أنه ليس سيداً مطلقاً على الكون ولا عبداً حقيراً له، بل هو خليفة الله في الأرض الذي يستمد عظمته من عظمة الله وسلطانه من إذن الله وقدرته من دعم الله.

وقد عبّر عن هذا في شعره بأجمل عبارة:

"الإنسان أعلى مما تتصور، وأدنى مما تعتقد. أعلى حين يتعلق بالله، وأدنى حين يتعلق بغيره. وهذه هي المعادلة التي أضاعها الغرب حين تعلق بكل شيء إلا الله"

ثالثاً: سيد قطب - الناقد الحضاري الجريء

من هو سيد قطب؟

سيد قطب مفكر وأديب مصري وُلد عام *1906*، وكان في شبابه أديباً ومنتقداً أدبياً قبل أن يتعمق في الفكر الإسلامي. وقد أتاحت له زيارته للولايات المتحدة بين عامي *1948* و*1950* فرصة فريدة: رأى الحضارة الغربية الأمريكية بعينيه في ذروتها وازدهارها، فعاد بتشخيص حضاري نادر لمن عاش في تلك الحقبة.

تشخيص سيد قطب للأزمة الغربية

أولاً: ما رآه في أمريكا

كتب سيد قطب بعد عودته من أمريكا مقالات جمعها في كتاب "أمريكا التي رأيت" وهو وثيقة تاريخية نفيسة لأنها تصف أمريكا الخمسينيات من عيني مسلم متأمل.

قال سيد قطب:

"رأيت في أمريكا رجالاً ونساءً يملكون كل شيء: المال والرفاهية والحرية والأمن المادي. ومع ذلك رأيت في أعينهم شيئاً لا أجد له اسماً إلا الجوع، جوعاً روحياً عميقاً يبحث عن طعام لا تُقدمه أمريكا ولا تعرف أن تُقدمه. رأيتهم يملؤون أوقاتهم بالضجيج لكيلا يسمعوا صوت الفراغ الداخلي. والإنسان حين يهرب من نفسه بالضجيج يُدرك في لحظات صمته القليلة أنه وحيد وحشياً في وسط الجموع"

وفي موضع آخر كتب عن الكنائس الأمريكية بصورة كاشفة:

"ذهبت إلى الكنيسة في أمريكا فوجدت مكاناً للترفيه والتسلية أكثر مما وجدت مكاناً للعبادة. القسيس يُقدم نفسه كمُرفِّه ويُقدم الدين كصفقة تجارية: أعطِ الله طاعتك يُعطيك النجاح المادي. هذا ليس ديناً بل هو انعكاس لثقافة السوق على لغة الدين"

ثانياً: مفهوم الجاهلية الحديثة

أهم ما قدمه سيد قطب في فكره الحضاري هو مفهوم "الجاهلية الحديثة"، وهو مفهوم أثار جدلاً واسعاً لكنه يحمل في جوهره تشخيصاً عميقاً جديراً بالتأمل.

يقول سيد قطب في كتابه الكبير "معالم في الطريق":

"إن البشرية اليوم تعيش في جاهلية من ناحية أصل الوجود ومنبع القيم ونظام الحياة. وليست هذه الجاهلية جهلاً علمياً أو تخلفاً تقنياً، بل هي جاهلية روحية: إنكار للسيادة الإلهية على حياة الإنسان، وادعاء لهذه السيادة من قِبل الإنسان نفسه. والذي يُؤلّه الإنسانُ في هذه الجاهلية الحديثة ليس أصناماً من الخشب والحجر كما في الجاهلية القديمة، بل هو يُؤلّه الدولة والطبقة والشعب وهوى النفس، وكلها في النهاية عبادة للهوى لا للحق"

ثالثاً: نقد التفريق الغربي بين الدين والدولة

يرفض سيد قطب رفضاً قاطعاً ما يُسمى بالعلمانية بمعنى الفصل التام بين الحياة والدين، ويرى أن هذا الفصل هو جذر الأزمة الغربية لأنه يترك الجانب المادي من الحياة بلا روح توجهه:

"حين تقول للدين: أنت شأن شخصي لا علاقة لك بالسياسة والاقتصاد والأخلاق العامة، فأنت لا تُحرر السياسة والاقتصاد من الدين بل تتركهما لأديان أخرى: دين المصلحة ودين القوة ودين الهوى. ولا يكون الإنسان حراً حقاً إلا حين يُحكِّم الشريعة الإلهية التي تضمن حق الجميع وكرامة الجميع"

رابعاً: العلامة محمد الغزالي - العالم الرباني الذي رأى البُعد الأخلاقي للأزمة

من هو الشيخ محمد الغزالي؟

الشيخ محمد الغزالي عالم أزهري مصري كبير وُلد عام *1917*، وأنتج خمسة وتسعين كتاباً في العقيدة والفقه والدعوة والحضارة، وكان من أبرز من جمعوا بين العلم الشرعي الراسخ والوعي الحضاري العميق.

تشخيص الشيخ الغزالي للأزمة الغربية

أولاً: أزمة الأخلاق بلا إيمان

يرى الشيخ الغزالي أن الأزمة الغربية في جوهرها أزمة أخلاقية لا حل لها خارج الإيمان، لأن الأخلاق المجردة من الإيمان كالشجرة المقلوعة من التربة: تبدو سليمة لفترة لكنها تذبل حتماً.

قال الشيخ الغزالي:

"يُحاول الغرب أن يبني أخلاقاً إنسانية عقلانية مستقلة عن الدين، ويُسمي هذا 'الإنسانية'. وأنا أقول: الإنسانية بلا دين مصيرها أن تتحول إلى قانون غابة يُلبَس في حلة جميلة. لأن الإنسان حين لا يُؤمن أنه مسؤول أمام الله عن كل صغيرة وكبيرة، يبقى ضميره مرهوناً بالقانون وحده، والقانون يُطبَّق على الضعيف ويتحايل عليه القوي. أما من يُؤمن بالله فضميره هو قانونه الداخلي الذي لا يُطفئه ظلام ولا يُسكته غياب الشهود"

وفي كتابه "الإسلام والاستبداد السياسي" يقول:

"الغرب صنع من حقوق الإنسان ديناً جديداً، لكن هذا الدين فشل حين واجه الاختبار. فالقوى الغربية الكبرى هي نفسها التي استعمرت الشعوب ونهبت خيراتها واستعبدت أبناءها باسم التقدم والحضارة. والتناقض بين شعارات حقوق الإنسان وبين سياسات القوى الكبرى يكشف أن الأخلاق بلا مرجعية إلهية عرضة دائماً للتوظيف السياسي والاستغلال"

ثانياً: الأزمة الروحية كأزمة تربية

يرى الشيخ الغزالي أن الأزمة الروحية في جوهرها أزمة تربوية: المدرسة الغربية تعلّم كيف تُفكر وكيف تُنتج لكن لا تعلّم كيف تكون. فتُخرج عقولاً مُدرَّبة في أجساد بلا روح.

قال:

"التربية الحديثة في الغرب صنعت من الإنسان آلة ذكية لكنها لم تصنع منه إنساناً كاملاً. والفرق بين الآلة الذكية والإنسان الكامل هو بالضبط الفرق بين الكمبيوتر الأحدث والطفل الصغير: الكمبيوتر يحسب ويُحلل لكنه لا يحب ولا يتألم ولا يُؤمن ولا يرجو. والإنسان الذي فقد هذه الأبعاد الروحية هو كمبيوتر بيولوجي لا أكثر"

خامساً: المفكر عبد الوهاب المسيري - الموسوعة الحية لنقد الحداثة الغربية

من هو عبد الوهاب المسيري؟

عبد الوهاب المسيري مفكر مصري كبير وُلد عام *1938*، وحصل على دكتوراه في الأدب الإنجليزي من جامعة رذجرز الأمريكية، وكان في شبابه قريباً من التيارات الماركسية والقومية ثم تحوّل إلى الإسلام بعد رحلة فكرية طويلة، وأنتج موسوعته الكبرى "موسوعة اليهود واليهودية والصهيونية" وسلسلة "العلمانية الجزئية والعلمانية الشاملة" التي تُعد من أبرز الأعمال النقدية الفكرية في القرن العشرين.

تشخيص المسيري للأزمة الغربية

أولاً: مفهوم العلمانية الشاملة وأثرها في تدمير الإنسان

ابتكر المسيري تمييزاً دقيقاً بالغ الأهمية بين نوعين من العلمانية:

العلمانية الجزئية: وهي الفصل بين الدين والدولة في المجال السياسي، وهو أمر يمكن النقاش فيه وله وجاهته في سياقات معينة.

العلمانية الشاملة: وهي الفلسفة الكاملة التي تُقصي الدين والغيب والمطلق من الحياة كلها لا من السياسة فحسب، وتجعل الطبيعة المادية هي المرجعية الوحيدة الأخيرة.

وقد بيّن المسيري أن العلمانية الشاملة هي التي أدت إلى "تسطيح الإنسان" أي تحويله من كائن متعدد الأبعاد إلى كائن أحادي البُعد يُعرَّف بجسده وشهواته وإنتاجه فحسب.

كتب المسيري في "دفاع عن الإنسان":

"العلمانية الشاملة أنجزت ما لم ينجزه أي طاغية في التاريخ: لم تسجن الإنسان في قفص من الحديد بل حبسته في قفص من اللذة والاستهلاك. وهذا القفص أشد خطورة لأن صاحبه يظن أنه حر بينما هو في أشد حالات العبودية. عبد لشهواته وعبد للسوق وعبد للرأي العام وعبد للموضة، حر في اختيار سجنه لكنه في السجن في كل الأحوال"

ثانياً: نقد النموذج المعرفي المادي

يرى المسيري أن جذر الأزمة الغربية يكمن في ما أسماه "النموذج المعرفي المادي" أي المنظومة الفكرية التي ترى في المادة التفسير الوحيد لكل شيء.

وقد طبّق المسيري هذا التحليل على ظاهرة الصهيونية التي رأى فيها نموذجاً متطرفاً للعلمانية الشاملة حين تُطبَّق على مجموعة بشرية، فتحوّل الإنسان إلى "إنسان وظيفي" يُعرَّف بما يؤديه من وظيفة لا بإنسانيته الكاملة.

قال المسيري:

"الإنسان الغربي الحديث في خطر حقيقي أن يتحول إلى إنسان وظيفي: يُعيَّن بوظيفته في السوق، ويُقيَّم بأرقام إنتاجيته، ويُعامَل بما يُقدمه من خدمات. وحين يفقد وظيفته أو يتقاعد أو يمرض يفقد هويته كلها لأن هويته كانت هي وظيفته. والإنسان الذي يملك هوية روحية مستمدة من إيمانه لا يُصيبه هذا الانهيار لأن هويته لا تُعرَّف بما يفعل بل بمن يكون"

ثالثاً: أزمة ما بعد الحداثة

يُقدم المسيري تحليلاً ثاقباً لما بعد الحداثة بوصفها المرحلة النهائية لانهيار الحداثة الغربية لا تجاوزاً لها:

"ما بعد الحداثة هي صرخة اليأس من الحداثة، حين أدرك الإنسان الغربي أن المشروع الحداثي الكبير الذي وعده بالتحرر والتقدم والسعادة لم يُنجز وعوده. فبدلاً من أن يُراجع مقدماته ومنطلقاته لجأ إلى رفض كل 'الكبريات السرديات' أي كل الأيديولوجيات والأطر الكبرى للتفسير. وهذا يعني عملياً أن لا شيء صحيح مطلقاً وأن كل شيء نسبي، وهو حل أشد خطورة من المرض لأنه يُعدم أي إمكانية للبحث عن الحق"

سادساً: الشيخ محمد الطاهر ابن عاشور - العالم الذي رأى الأزمة من منظور مقاصدي

من هو ابن عاشور؟

الشيخ محمد الطاهر ابن عاشور العالم التونسي الكبير الذي وُلد عام *1879* وعاش حتى عام *1973*، وترك إرثاً علمياً ضخماً أبرزه تفسيره الكبير "التحرير والتنوير" وكتابه الفكري المؤسِّس "مقاصد الشريعة الإسلامية".

تشخيص ابن عاشور للأزمة

من منظور مقاصدي عميق رأى ابن عاشور أن الحضارة الغربية حققت جزءاً من المقاصد الخمس التي جاءت الشريعة لحفظها وهي: حفظ النفس والعقل والمال، لكنها أخفقت إخفاقاً ذريعاً في المقصدين الأهم وهما: حفظ الدين وحفظ النسل.

قال ابن عاشور:

"الحضارة التي تُحفظ فيها النفوس من القتل المادي لكن تُقتل فيها الأرواح بالإلحاد والعدمية لم تحفظ النفوس حقيقةً بل حفظت أجسادها وأهدرت جوهرها. والحضارة التي تنمو فيها الثروات لكن يتفكك فيها النسل ويهدم فيها الأسرة لم تحقق الفلاح بل حققت جزءاً منه الأهون وأضاعت جزءه الأعظم"

وفي نقده للنموذج الغربي كتب:

"العقل البشري وحده بلا وحي كالعين وحدها في الظلام الكامل: صحيحة البنية تامة التجهيز لكنها عاجزة عن الرؤية لأن الرؤية تحتاج إلى نور خارجي. والوحي هو نور العقل الذي يُريه ما لا يستطيع أن يراه وحده. فلما أطفأ الغرب نور الوحي بقي بعقل صحيح في ظلام كامل فضرب في كل اتجاه دون أن يُبصر"

سابعاً: أبو الأعلى المودودي - الرؤية الشاملة للأزمة الحضارية

من هو المودودي؟

أبو الأعلى المودودي المفكر الإسلامي الباكستاني الكبير الذي وُلد عام *1903*، وأنتج مشروعاً فكرياً ضخماً يتناول الإسلام كنظام حضاري متكامل في مواجهة نظيريه الرأسمالي والاشتراكي. وكان من أوائل من رصدوا الأزمة الحضارية الغربية بعيون إسلامية نقدية واعية.

تشخيص المودودي للأزمة

أولاً: أزمة السيادة

يرى المودودي أن جوهر الأزمة الغربية هو ما أسماه *"أزمة الحاكمية"* أي مشكلة: مَن يحكم؟ ومَن له الحق في التشريع؟

> "حين أزاح الإنسان الغربي الله عن عرش السيادة ملأ هذا العرش بأصنام جديدة: الأمة، والطبقة، والعرق، والفرد. وكل صنم من هذه الأصنام مارس طغيانه وأثبت عجزه. ولن يجد الإنسان راحته وعدله إلا حين يُقرّ بالسيادة المطلقة لله وحده، الذي لا مصلحة له في ظلم أحد ولا يحابي طبقة دون طبقة ولا قوماً دون قوم"

ثانياً: فشل النظامين الكبيرين

كتب المودودي في فترة الحرب الباردة حين كان العالم منقسماً بين الرأسمالية والشيوعية بصيرة نادرة:

> "النظامان المتصارعان: الرأسمالية والشيوعية وجهان لعملة واحدة هي المادية الفلسفية. الرأسمالية تقول: دع الفرد يستغل الموارد بحرية والسوق يُنظِّم كل شيء. والشيوعية تقول: دع الدولة تُنظِّم كل شيء وتستغل الموارد باسم الجماعة. وكلاهما يتفق على إقصاء الله من الحياة العامة وعلى المادة كمرجع أخير. والفارق بينهما كالفارق بين صنمين: كلاهما حجر لا يسمع ولا يُجيب"

ثامناً: محمد أركون - الصوت النقدي المغاير

لا تكتمل الصورة دون الإشارة إلى محمد أركون المفكر الجزائري الذي عاش معظم حياته في فرنسا وتأثر بالمناهج الفرنسية في نقد الفكر الديني. وقد كان موقفه من الأزمة الغربية مختلفاً نوعياً عن المفكرين السابقين:

رأى أركون أن الحل ليس في العودة إلى التراث الإسلامي كما هو، بل في "تحديث الفكر الإسلامي" بأدوات الهرمنيوطيقا الغربية والأنثروبولوجيا وعلوم اللغة لإعادة قراءة النص الديني.

وهذا الموقف أثار نقداً واسعاً من المفكرين الإسلاميين الآخرين، ولعل أبرز ما يُؤخذ عليه ما لاحظه عبد الوهاب المسيري حين قال:

> "المشكلة في مشروع أركون أنه يريد علاج مريض يعاني من هواء ملوث بإدخاله غرفة بها هواء أشد تلوثاً. فالأدوات الغربية التي يريد استخدامها لتحديث الإسلام هي نفسها التي أنتجت الأزمة الغربية، فكيف تكون الداء والدواء في آن؟"

تاسعاً: المفكر المغربي طه عبد الرحمن - فيلسوف الروح والأخلاق

من هو طه عبد الرحمن؟

طه عبد الرحمن فيلسوف مغربي معاصر يُعدّ من أعمق المفكرين الإسلاميين في القرن الحادي والعشرين، وصاحب مشروع فلسفي متكامل يقوم على ما أسماه "فلسفة التداول" و**"مبدأ الروح"**.

تشخيصه للأزمة الغربية

يرى طه عبد الرحمن أن الأزمة الغربية تتمحور حول ما أسماه "الهيمنة بلا روح"، وهو يعني بذلك أن الغرب طور نموذج الهيمنة على العالم: هيمنة اقتصادية وعسكرية وثقافية، لكن هذه الهيمنة تفتقر إلى مبدأ روحي يُسبغ عليها المشروعية ويمنحها الاتجاه السليم.

كتب في كتابه الكبير "روح الحداثة":

> "الحداثة الغربية بنت صرحاً ضخماً من الحقوق والقيم الإنسانية، لكنها قطعت الخيط الذي يربط هذه الحقوق بمصدرها الحقيقي وهو الكرامة الإلهية للإنسان. فحين تُقرر أن للإنسان حقاً في الحياة والكرامة بمعزل عن أي مرجعية إلهية، تبنيها على الهواء، لأن السؤال يبقى: لماذا للإنسان هذه الحقوق وليست لغيره من الكائنات؟ ما الذي يُميزه؟ ولا جواب مُقنع على هذا السؤال خارج فكرة أن الله كرّم الإنسان وفضّله"

وفي نقده لما أسماه "الأخلاق المجردة":

> "الأخلاق الغربية الحديثة تُريد أن تكون أخلاقاً بلا أخلاقي، قيماً بلا مُقيّم، حقوقاً بلا مُحقِّق. والأمر أشبه بمن يُريد ضوءاً بلا مصدر للضوء. وهذا مستحيل ليس دينياً فحسب بل فلسفياً أيضاً. لأن القيمة تحتاج إلى من يُسبغها ويُلزم بها، وهذا لا يكون إلا الله"

عاشراً: الشيخ يوسف القرضاوي - الرؤية الشاملة من العالم الفقيه

الشيخ يوسف القرضاوي أحد أبرز العلماء المسلمين المعاصرين وأكثرهم انشغالاً بالسؤال الحضاري، رصد الأزمة الغربية من زاوية مختلفة وهي زاوية الفقه الحضاري.

قال في كتابه "الإسلام والعلمانية وجهاً لوجه":

> "يتباهى الغرب بحقوق الإنسان التي صاغها، لكنه نفسه أكبر منتهك لهذه الحقوق في التاريخ. استعمر شعوباً واستعبدها، ونهب خيرات أمم ورمى بها في هاوية الفقر. والسبب في هذا التناقض الصارخ أنه بنى حقوقه على العقل المجرد لا على الوحي الإلهي. والعقل المجرد يخضع دائماً للهوى والمصلحة حين تتعارض مع الحق، أما الوحي فهو من الله الذي لا هوى له ولا مصلحة خاصة"

خلاصة: ما يجمع المفكرين الإسلاميين في تشخيصهم

حين نقرأ تشخيصات هؤلاء المفكرين الإسلاميين المتنوعي الخلفيات والمناهج نجد أنهم يلتقون على محاور أساسية:

المحور الأول: الأزمة الغربية ليست أزمة علمية أو اقتصادية بل هي أزمة غيابية: غياب الله عن مركز الحياة وغياب المعنى الكلي والغاية الكبرى.

المحور الثاني: الحلول التي جرّبها الغرب من ماركسية ورأسمالية ووجودية وما بعد حداثة كلها تعالج أعراضاً دون أن تصل إلى الجذر، لأنها كلها تبقى داخل المنظومة المادية التي أنتجت الأزمة.

المحور الثالث: الإسلام ليس مجرد بديل ديني بل هو نموذج حضاري متكامل يُعالج الأزمة من جذورها لأنه يُقدم تصوراً كاملاً للإنسان والكون والحياة والمصير.

المحور الرابع: الخروج من الأزمة لا يكون بردة فعل انفعالية على الغرب بل بتقديم النموذج الإسلامي في حياته الحضارية الفعلية.

وكلهم في النهاية يُشيرون إلى ما أشار إليه الله في كتابه:

(يَا أَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَتْكُم مَّوْعِظَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَشِفَاءٌ لِّمَا فِي الصُّدُورِ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ * قُلْ بِفَضْلِ اللَّهِ وَبِرَحْمَتِهِ فَبِذَٰلِكَ فَلْيَفْرَحُوا هُوَ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ) - يونس: 57-58

الجزء الثاني: مظاهر الأزمة الروحية وتجلياتها الحية في الواقع المعاصر

مدخل: حين تتجسد الأفكار في واقع مؤلم

في الجزء الأول تحدثنا عن الجذور والأسباب والمنطلقات الفكرية والتاريخية للأزمة الروحية الغربية، وكان الحديث في مستوى الأفكار والفلسفات والتيارات. أما في هذا الجزء فننزل من عالم الأفكار إلى عالم الواقع المعاش، لأن الأفكار الخاطئة لا تبقى في الكتب بل تنزل إلى الشوارع والبيوت والمستشفيات والمحاكم وتُنتج جراحاً حقيقية في جسد البشرية.

وسنتناول هذه المظاهر بأسلوب مختلف: سنضع كل ظاهرة أمامك في ثلاثة مستويات متتالية:

المستوى الأول: الظاهرة كما تبدو للعين المجردة مع أرقامها وشواهدها.

المستوى الثاني: جذرها الروحي العميق الذي لا يُرى بالعين المجردة.

المستوى الثالث: ما يقوله الكتاب والسنة والسنن الكونية في هذا الشأن ومقارنته بالواقع الغربي المعاصر.

المظهر الأول: انهيار الأسرة - تفكك الخلية الأساسية للحضارة

الظاهرة كما تبدو

في عام *1960* كان معدل الطلاق في الولايات المتحدة يبلغ نحو ثمانية وعشرين بالمئة من الزيجات. واليوم يتجاوز خمسين بالمئة في عدد من الولايات الأمريكية. وفي فرنسا وصل معدل الطلاق إلى خمسة وخمسين بالمئة في باريس. أما في بلجيكا فقد تجاوز سبعين بالمئة في بعض المدن الكبرى. وهذا يعني بلغة الأرقام الجافة أن كل زيجتين في بعض المدن الأوروبية إحداهما تنتهي بالطلاق.

لكن الطلاق ليس المشكلة الوحيدة ولا الأشد خطورة، بل ثمة ظاهرة أعمق منه وأكثر دلالة على حجم الأزمة وهي: ظاهرة العزوف عن الزواج كلياً. في ألمانيا انخفض عدد الزيجات من تسعمئة وثمانية وثلاثين ألف زواج عام *1960* إلى أقل من أربعمئة ألف عام *2020* رغم أن عدد السكان ارتفع في نفس الفترة. وفي اليابان يُعلن ما يزيد على ثلاثة وعشرين بالمئة من الشباب أنهم لا يرغبون في الزواج أصلاً ولا في إقامة علاقات عاطفية من أي نوع، وهو ما أطلق عليه الباحثون اسم ظاهرة *"الإنسان العازب بالاختيار"*.

ومن أشد الظواهر إيلاماً وأكثرها دلالة على الأزمة ارتفاع نسبة الأطفال المولودين خارج إطار الزواج. في فرنسا تجاوزت هذه النسبة ستين بالمئة من مجموع المواليد عام *2021*. وفي إسلندا تصل إلى اثنين وسبعين بالمئة. وهذا يعني أن أكثر من نصف الأجيال القادمة في هذه المجتمعات ستنشأ في غياب الأسرة التقليدية المتكاملة.

والأثر على الأطفال موثق في آلاف الدراسات العلمية توثيقاً لا مجال لإنكاره: الأطفال المنشؤون في أسر مفككة هم الأكثر عرضة لاضطرابات الشخصية والاكتئاب والإدمان والجريمة والفشل الدراسي والعجز عن بناء علاقات مستقرة في المستقبل. وهكذا يتوارث الانهيار جيلاً بعد جيل في حلقة مفرغة متصاعدة.

الجذر الروحي العميق

حين تسأل لماذا تنهار الأسرة في الغرب بهذه الصورة المتسارعة لا تجد الجواب في الاقتصاد ولا في تغير أنماط الحياة المادية فحسب، بل تجده في منظومة فكرية كاملة تحكم العقل الغربي المعاصر تجاه الأسرة.

هذه المنظومة تقوم على عدة محاور متشابكة:

المحور الأول: الفردانية الجذرية. الثقافة الغربية الحديثة تُعلي من قيمة الفرد وتجعل تحقيق الذات الفردية الهدف الأسمى. والزواج والأسرة في هذا الإطار يُصبحان مشروعاً اختيارياً يمكن الدخول فيه والخروج منه متى شعر الفرد أنه يُقيِّد *"تحقيق ذاته"*. والحب الذي يُبنى عليه الزواج في الثقافة الغربية هو الحب العاطفي الرومانسي القائم على المشاعر المتقلبة بطبيعتها، فحين تتراجع المشاعر يتراجع معها مبرر الاستمرار.

وهذا يختلف جذرياً عن التصور الإسلامي الذي يقوم الزواج فيه على المودة والرحمة وهما بناء إرادي واعٍ لا مجرد مشاعر عابرة. فالمودة تبنى بالقرار والإرادة والتضحية، والرحمة تنمو بالمسؤولية المشتركة والصبر المتبادل. وهذان الركيزتان أثبتا من الناحية العملية أنهما أقدر على الصمود أمام تقلبات الحياة من الرومانسية الهشة.

المحور الثاني: إقصاء فكرة المسؤولية الأخروية. الإنسان المؤمن يعلم أنه مسؤول أمام الله عن علاقته بزوجه وأبنائه، وهذه المسؤولية الغيبية تُضيف بُعداً لا تستطيع أي محكمة دنيوية أن تُضيفه. أما الإنسان العلماني فمسؤوليته محدودة بالقانون المدني فحسب، والقانون المدني يمنحه الطلاق حين يريده، فلا رادع داخلي يُوقفه حين تُغري به المصلحة الآنية.

المحور الثالث: الثورة الجنسية وما أنتجته. في ستينيات القرن العشرين شهد الغرب ما يُسمى *"الثورة الجنسية"* التي نادت بتحرير الجنس من قيود الزواج والأخلاق التقليدية، وقدّمت الإباحية الجنسية على أنها تحرر ونضج. والنتيجة بعد ستة عقود من هذه *"الثورة"* كانت: ارتفاع حاد في الأمراض المنقولة جنسياً، وارتفاع في معدلات الطلاق، وتدمير قدرة الإنسان على الارتباط العاطفي العميق لأن الجنس المتاح بسهولة يُجفف منبع الاشتياق والتعلق الذي هو أساس بناء الروابط المستدامة.

وقد كتب عالم الاجتماع الأمريكي فيليب زيمباردو في كتابه *"انسحاب الرجال"*:

"الجيل الجديد من الشباب الأمريكي يُفضل الإباحية على العلاقات الحقيقية لأن الأولى لا تُكلِّف شيئاً والثانية تُكلِّف كل شيء: الوقت والطاقة والتعرض للجرح والمسؤولية. وقد رُبِّيَ هذا الجيل على ثقافة المكاسب الآنية والتكاليف الصفرية فعجز عن فهم أن أجمل ما في الحياة يُكلِّف كثيراً"

ما يقوله الكتاب والسنة

قال الله تعالى:

(وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَاجاً لِّتَسْكُنُوا إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُم مَّوَدَّةً وَرَحْمَةً إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ) - الروم: *21*

لاحظ الدقة المعجزة في هذه الآية: جعل الله الأسرة من آياته أي من علاماته في الكون التي تُشير إليه وتدل عليه، كما تكون الشمس والقمر والنجوم آيات. ومعنى هذا أن الأسرة ليست مجرد ترتيب اجتماعي قابل للتعديل والتبديل وفق أهواء الأفراد، بل هي سنة كونية ربانية مبنية في طبيعة الوجود البشري.

وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "ما بنى الإسلام بناءً أحب إلى الله من الزواج" - رواه ابن ماجه وصحه الألباني.

وهذا الحديث يكشف البُعد الروحي للأسرة في الإسلام: إنها ليست عقداً مدنياً فحسب بل هي بناء يُقيمه الإنسان يكسب بإقامته رضا الله. وحين يكون الزواج عبادة لا مجرد عقد، تتغير طبيعة الالتزام به جذرياً.

وقد أثبتت الدراسات الحديثة ما أثبته الوحي منذ أربعة عشر قرناً: الأزواج المستقرون يعيشون أطول، وأصحة جسداً ونفساً وأكثر سعادة ذاتية من العزاب وأصحاب العلاقات غير المستقرة. وهذا ليس مصادفة بل هو تأكيد عملي للسنة الكونية التي وضعها الله في بنية الإنسان.

المظهر الثاني: وباء الوحدة - أن تكون بين الملايين ومع ذلك وحيداً

الظاهرة كما تبدو

في عام *2018* أصدرت الحكومة البريطانية تقريراً صادماً وصفت فيه الوحدة بأنها "وباء العصر" وعيّنت وزيرة خاصة لمواجهتها. وكان هذا الإعلان في حد ذاته معجزاً: أن تحتاج دولة من أقوى دول العالم إلى وزير لمواجهة... الوحدة!

أرقام الظاهرة صادمة في مجتمعات تعج بالناس والاتصالات والوسائل الرقمية:

في الولايات المتحدة وصفت جمعية علم النفس الأمريكي الوحدة بأنها "أزمة صحة عامة" وأشارت إلى أن ما يزيد على ستين بالمئة من الأمريكيين يُعانون من الوحدة بصورة منتظمة. وفي المملكة المتحدة أشارت الدراسات إلى أن أكثر من تسعة ملايين بريطاني يُعانون من الوحدة بما فيهم كثيرون يعيشون مع أسرهم. وفي اليابان ظهرت ظاهرة غريبة تُسمى "هيكيكوموري" حيث يحبس الشباب أنفسهم في غرفهم سنوات متتالية يرفضون أي تواصل اجتماعي، ويُقدَّر عددهم بأكثر من مليوني شخص.

والأشد إيلاماً هو ما كشفه الباحث البريطاني جون كاسيوبو الذي كرّس حياته لدراسة ظاهرة الوحدة وتوصل إلى أن آثار الوحدة المزمنة على الصحة تُعادل تدخين خمس عشرة سيجارة يومياً وتُعادل السمنة المفرطة من حيث الخطر على الحياة. الوحدة ليست مجرد شعور بل هي مرض يقتل ببطء.

وأغرب ما في هذه الظاهرة أنها تنتشر في ظل وجود وسائل التواصل الاجتماعي التي وعدت بربط العالم. فالإنسان الذي يملك ألف صديق على الفيسبوك وآلاف المتابعين على إنستغرام يُعاني في الوقت ذاته من وحدة خانقة. وهذا الطراز من الوحدة أسماه الباحثون "الوحدة المتصلة" *Connected Loneliness* وهو نوع جديد لم يُعرف في التاريخ البشري من قبل.

الجذر الروحي العميق

الوحدة التي يُعانيها الإنسان الغربي ليست وحدة الجسد فحسب، أي ليست مجرد غياب الرفقة الإنسانية، بل هي في جوهرها وحدة الروح، أي انفصال الإنسان عن الله أولاً وعن الآخرين ثانياً وعن نفسه الحقيقية ثالثاً. وهذه الأنواع الثلاثة من الوحدة تترابط وتتغذى على بعضها.

الوحدة مع الله: الإنسان الذي لا يعرف أن ثمة حضوراً إلهياً يُحيط به في كل لحظة يُحسّ بوحشة وجودية لا يُفسرها ولا يُداريها. والمؤمن يعلم أن الله معه في كل لحظة:

(وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنتُمْ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ) - الحديد: 4

هذه الآية ليست مجرد عقيدة ذهنية بل هي حضور روحي فعلي يُشعر به المؤمن في قلبه فلا يكون وحيداً أبداً. أما من لا يُؤمن بهذا الحضور فهو وحيد حتى في وسط الحشود.

الوحدة مع الناس: الاتصال الحقيقي بين البشر لا يقوم على تبادل المعلومات ولا على الاشتراك في النشاطات الترفيهية، بل يقوم على رابطة روحية عميقة هي الأخوة الحقيقية. وهذه الأخوة لا تنشأ إلا في ظل قيم مشتركة تتجاوز المصلحة المادية.

قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "المؤمن للمؤمن كالبنيان يشد بعضه بعضاً" - رواه البخاري ومسلم، وشبّك بين أصابعه.

هذا التشبيك بين الأصابع الذي فعله النبي صلى الله عليه وسلم وهو يُلقي هذا الحديث هو أجمل تعبير بصري عن نقيض الوحدة: الاشتباك والتعاضد والتماسك الروحي الحقيقي.

الوحدة مع النفس: من أكثر أشكال الوحدة إيلاماً وأقلها حظاً من الدراسة والاهتمام هي وحدة الإنسان مع نفسه، أي أن يعيش بلا معرفة حقيقية لذاته. والإنسان الغربي الحديث يهرب من هذه الوحدة بالانشغال المتواصل، فساعات فراغه تُملأ بالهاتف والتلفاز والضجيج لكيلا يجد نفسه في مواجهة نفسه.

وقد قال عالم النفس الشهير ارنيست بيكر في كتابه الكبير "إنكار الموت":

"أكبر مشاريع الإنسان الحديث ليست بناء المدن ولا اكتشاف الفضاء، بل مشروع الهروب من نفسه. يهرب من صمته بالضجيج ومن وحدته بالجموع ومن أسئلته بالترفيه. وحين يتوقف الضجيج يُداهمه الرعب"

والإسلام هو الدين الذي يُعلم الإنسان كيف يُواجه نفسه بدلاً من أن يهرب منها. والمحاسبة والمراقبة والتأمل والتفكر كلها ممارسات روحية إسلامية تُبني العلاقة الصحية بين الإنسان ونفسه.

قال الله تعالى:

*(يَا أَيَّتُهَا النَّفْسُ الْمُطْمَئِنَّةُ * ارْجِعِي إِلَى رَبِّكِ رَاضِيَةً مَّرْضِيَّةً) - الفجر: 27-28*

الاطمئنان النفسي الحقيقي لا يأتي من الخارج بل من الداخل، ومن الداخل لا يأتي إلا من العلاقة مع الله.

المظهر الثالث: الاكتئاب والقلق - الوباء الصامت الأشد فتكاً

الظاهرة كما تبدو

وصفت منظمة الصحة العالمية الاكتئاب بأنه "العبء المرضي الأول في العالم"، وقدّرت أن أكثر من ثلاثمئة وخمسين مليون إنسان في العالم يُعانون منه، أغلبهم في المجتمعات الغربية المتقدمة.

وحين نُقارن بين المجتمعات نجد مفارقة صارخة تُلخص الأزمة الروحية تلخيصاً مكثفاً: الدول الأكثر رفاهية مادية هي في الغالب الأكثر معاناة من الاكتئاب. السويد التي تُعدّ من أعلى دول العالم في مؤشرات الرفاهية المادية وجودة الحياة المادية تتصدر في الوقت ذاته قوائم أعلى معدلات الاكتئاب في أوروبا. والولايات المتحدة التي تُمثل أقوى اقتصاد في العالم تستهلك خمسين بالمئة من الإنتاج العالمي لمضادات الاكتئاب.

والظاهرة تتصاعد بصورة مضطردة في الأجيال الجديدة. فمنذ أن انتشرت الهواتف الذكية ووسائل التواصل الاجتماعي عام *2012* ارتفعت معدلات الاكتئاب بين المراهقين الأمريكيين بنسبة ثلاثة وستين بالمئة بين الذكور وبنسبة تصل إلى مئة وسبعة وثمانين بالمئة بين الإناث. وقد وثّق هذا الارتفاع المروع عالم النفس الأمريكي جوناثان هايدت في كتابه الصادر حديثاً "جيل القلق" بأدلة إحصائية لا تقبل الطعن.

وتُحكي قصة هذه الأجيال الجديدة مأساة الأزمة الروحية بصورة واضحة: جيل نشأ بلا جذور روحية، وبلا قيم ثابتة، وبلا يقين يُستند إليه، وبلا أسرة مستقرة في كثير من الحالات، ومحاصَر بمقارنات مستمرة عبر وسائل التواصل الاجتماعي تجعله يُحسّ بنقصه الدائم وعجزه عن بلوغ الصورة المثالية التي يراها في شاشته.

والانتحار هو الوجه الأشد قسوة لهذا الاكتئاب المتفشي: في الولايات المتحدة يقتل الانتحار أكثر من سبعة وأربعين ألف إنسان سنوياً وهو رقم يتجاوز ما تقتله الحوادث المرورية. وفي دول الشمال الأوروبي يظل الانتحار من أكبر أسباب الوفاة بين الشباب. وكل رقم من هذه الأرقام هو إنسان كان لديه اسم وحلم وأسرة وتاريخ، فقرر أن لا يستمر.

الجذر الروحي العميق

الاكتئاب كمرض له أسباب متعددة بعضها بيولوجي وكيميائي وبعضها نفسي وبيئي. لكن الاكتئاب الوبائي الذي يُصيب مجتمعات بأكملها ويتزايد بهذه الصورة المتسارعة له جذر أعمق من الجذر الكيميائي، وهو ما أسماه الطبيب النفسي الأمريكي فيكتور فرانكل بـ**"فراغ الوجود"** أي إحساس الإنسان بأن حياته خالية من المعنى والهدف والقيمة.

وقد ميّز فرانكل بين نوعين من المعاناة: معاناة يصبر عليها الإنسان حين يرى لها معنى، ومعاناة تُدمر الإنسان حين لا يرى لها معنى. وكان اكتشافه هذا نتيجة تجربة شخصية: رأى في معسكرات الاعتقال النازية أن من نجوا لم يكونوا الأقوى جسداً بل كانوا من يملكون سبباً للبقاء، هدفاً يُريدون تحقيقه أو شخصاً يُريدون العودة إليه.

والإسلام يُقدم للإنسان أعمق وأشمل نظام لإنتاج المعنى في كل تجربة حياتية بما فيها أشدها إيلاماً:

قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "عجباً لأمر المؤمن إن أمره كله خير، وليس ذاك لأحد إلا للمؤمن: إن أصابته سراء شكر فكان خيراً له، وإن أصابته ضراء صبر فكان خيراً له" - رواه مسلم.

هذا الحديث يصف نظاماً متكاملاً لإنتاج المعنى: السراء تُنتج الشكر والشكر يُنتج المزيد من النعمة، والضراء تُنتج الصبر والصبر يُنتج الأجر والنمو الروحي. فكل تجربة في حياة المؤمن لها وجهة ومعنى وقيمة. وهذا النظام يُحصّن الإنسان من الوقوع في هاوية الإحساس بالعبثية الذي هو جذر الاكتئاب الوجودي.

والأهم من ذلك أن الإسلام يُقدم حلاً عملياً للحظات الاكتئاب والقلق يُثبته الوحي ويُؤكده علم النفس المعاصر:

(أَلَا بِذِكْرِ اللَّهِ تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ) - الرعد: *28*

وقد أثبتت دراسات علم الأعصاب الحديثة أن الصلاة والتأمل الروحي يُنتجان تغييرات قابلة للقياس في الدماغ: يرفعان مستوى السيروتونين والدوبامين ويُخفضان الكورتيزول هرمون التوتر. فالإسلام لم ينتظر علم الأعصاب ليُقرر أن الذكر والصلاة علاج للقلق بل أعلن هذا منذ أربعة عشر قرناً.

المظهر الرابع: إدمان المخدرات والكحول - الهروب إلى اللا وعي

الظاهرة كما تبدو

في عام *2021* توفي أكثر من مئة وسبعة آلاف أمريكي بسبب جرعات مفرطة من المخدرات، وهو رقم يتجاوز مجموع قتلى الحروب الأمريكية في فيتنام وكوريا والعراق وأفغانستان مجتمعةً. وقد أصبح هذا ما يُسميه المحللون "أزمة الأوبيويد" التي تنهش المجتمع الأمريكي نهشاً لا يتوقف منذ أكثر من عقد.

والأرقام الأوروبية لا تقل إثارة للقلق: وفق تقارير المرصد الأوروبي للمخدرات يتعاطى أكثر من ثلاثة وثمانين مليون أوروبي القنب الهندي بصفة منتظمة، ويُدمن الكحول نحو عشرة ملايين أوروبي بصورة مشكلة. ويُكلِّف إدمان الكحول وحده الاتحاد الأوروبي ما يزيد على مئة وخمسة وعشرين مليار يورو سنوياً في تكاليف الرعاية الصحية وفقدان الإنتاجية والحوادث.

والجانب الأكثر إثارة للتأمل في هذه الظاهرة هو من الذي يُدمن: الإدمان لا يُصيب الفقراء فحسب ولا المحرومين وحدهم، بل يضرب في قلب الطبقات المتوسطة والعليا ويطال الأطباء والمحامين والأكاديميين. وهذا يكشف أن الإدمان لا يُنتجه الفقر المادي بل يُنتجه الفقر الروحي الذي لا يُميّز بين غني وفقير ولا بين متعلم وجاهل.

الجذر الروحي العميق

قدّم الباحث البريطاني جوهان هاري في كتابه "مطاردة الصراخ" نتيجة بحثية ثورية قلبت الفهم السائد للإدمان: درجنا تاريخياً على تفسير الإدمان كيميائياً، أي أن المادة المخدرة نفسها هي التي تُسبب الإدمان بتأثيرها على الدماغ. لكن هاري بعد أن راجع عشرات الدراسات وأجرى مقابلات مع مئات المدمنين خلص إلى نتيجة مختلفة تماماً:

الإدمان في جوهره ليس علاقة بين الإنسان والمادة المخدرة بل هو استجابة للانفصال والفراغ والمعاناة بلا معنى.

ودلّل على ذلك بتجربة مشهورة أُجريت في كندا سُميت "حديقة الجرذان": حين وُضع جرذ منفرد في قفص مع زجاجتين من الماء إحداهما نقية والأخرى مخلوطة بالهيروين، مال الجرذ باستمرار نحو ماء الهيروين حتى مات إدماناً. لكن حين وُضع الجرذ في بيئة اجتماعية غنية مع جرذان أخرى وألعاب ومساحة للحركة فإنه مال نحو الماء النقي حتى حين كان ماء الهيروين متاحاً!

والدرس واضح: الإنسان يهرب إلى الإدمان حين تُقطع به أسباب الاتصال الحقيقي: اتصاله بالله واتصاله بالناس واتصاله بالهدف.

والإسلام حرّم المسكرات والمخدرات لا بدافع التضييق على الإنسان بل بدافع حمايته من هذا الهروب الذي يُعمِّق جرحه بدلاً من أن يُداويه:

قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "كل مسكر خمر وكل خمر حرام" - رواه مسلم.

والحكمة العميقة في هذا التحريم تتجلى حين نُدرك أن المسكر يُعطي الإنسان هرباً وهمياً مؤقتاً من ألمه الروحي لكنه يُعود به إلى ألم أشد حين تزول سكرته. أما الإسلام فيُقدم للإنسان الألم الحقيقي وجهاً لوجه ويُعطيه أدوات مواجهته بدلاً من أدوات الهروب منه.

المظهر الخامس: أزمة الهوية - الإنسان الذي لا يعرف من هو

الظاهرة كما تبدو

من أكثر الظواهر غرابةً وأشدها دلالة على عمق الأزمة الروحية في الغرب المعاصر ما يُسمى بـ**"أزمة الهوية"** التي تُصيب الأجيال الجديدة بصورة غير مسبوقة في التاريخ.

الهوية بمعناها الأشمل هي الجواب الذي يُعطيه الإنسان على سؤال: من أنا؟ وهذا السؤال الذي بدا تاريخياً بسيطاً نسبياً، لأن الإنسان كان يجيب عنه بانتمائه الديني والأسري والقبلي والجغرافي، أصبح في ظل الحداثة الغربية المتأخرة سؤالاً شبه مستحيل.

فالإنسان الغربي الجديد لا يملك انتماءً دينياً راسخاً لأن الدين أُزيح، ولا انتماءً أسرياً مستقراً لأن الأسرة تفككت، ولا انتماءً وطنياً بسيطاً لأن العولمة أضعفت الهويات الوطنية، فأصبح يُعرِّف نفسه بهويات جزئية مكتسبة: هويته الجنسية واهتماماته الثقافية وانتماءاته السياسية وهويته الرقمية.

وقد أنتج هذا الفراغ الهوياتي ظاهرة غريبة هي ما يُسمى بـ**"أزمة التعدد الجنساني"**، حيث أعلنت عدة دول غربية رسمياً عن ثلاثين أو أكثر من الهويات الجندرية التي يمكن للفرد أن يختار من بينها، وأتاحت للأفراد تغيير جنسهم القانوني وفق ما يُحسون به داخلياً في لحظة معينة.

ومن الناحية الإحصائية ارتفعت نسبة الشباب الذين يُعرِّفون أنفسهم بأنهم من مجتمع الميم في الولايات المتحدة من واحد ونصف بالمئة لدى جيل بيبي بومر إلى عشرين بالمئة لدى جيل زد وفق استطلاعات غالوب الأخيرة. هذه الزيادة الهائلة في عقد واحد لا يمكن تفسيرها بيولوجياً أو وراثياً، بل تعكس إلى حد بعيد أزمة هوية عميقة لدى جيل لم يجد هويات راسخة أخرى يتمسك بها.

وقد كتب عالم النفس الكندي جوردان بيترسون الذي أصبح أحد أكثر المفكرين نفوذاً في الغرب الأنغلوساكسوني وتحول لاحقاً إلى المسيحية:

> "الجيل الجديد يعاني من أزمة معنى حادة، وحين يُعرض عليه معنى حتى ولو كان معنى ضيقاً وجزئياً كالهوية الجنسية المختارة يتمسك به بكل قوته لأنه لا يملك شيئاً سواه. والحل الحقيقي ليس في تشجيع الانحلال الهوياتي بل في تقديم هويات كاملة وراسخة تُشبع الحاجة الإنسانية العميقة إلى الانتماء والمعنى"

الجذر الروحي العميق

أزمة الهوية الغربية في جوهرها أزمة غياب الجواب الكافي عن سؤال من أنا. والإسلام يُقدم الجواب الأكمل والأعمق عن هذا السؤال، جواباً يُغني كل أبعاد الهوية في آن:

الهوية العمودية: الإنسان المسلم يعرف أنه مخلوق الله وعبده وخليفته في الأرض، وهذه العلاقة مع الله تمنحه أعلى هوية ممكنة لا يُساويها انتماء.

الهوية الأفقية: هو أخ في الإسلام لكل مسلم في العالم بلا فارق عرق أو لون أو جنسية، وهذه الأخوة الإنسانية الكبرى تُعطيه انتماءً أعمق وأوسع من أي انتماء قومي أو ثقافي.

الهوية الزمنية: هو حلقة في سلسلة بشرية ممتدة من آدم عليه السلام إلى يوم القيامة، جزء من قصة كبرى لها بداية وهدف ونهاية. وهذا يمنحه إحساساً بالاستمرار والمعنى التاريخي يُحمي من إحساس العبثية.

قال الله تعالى:

(وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ وَحَمَلْنَاهُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَرَزَقْنَاهُم مِّنَ الطَّيِّبَاتِ وَفَضَّلْنَاهُمْ عَلَى كَثِيرٍ مِّمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلاً) - الإسراء: 70

كرّمنا وفضّلنا: هذان الفعلان يُقدمان هوية الإنسان لا كاختيار شخصي بل كمنحة إلهية. ولا توجد هوية أرسخ من تلك التي يمنحها الخالق لمخلوقه.

المظهر السادس: تدمير البيئة - حين تفقد الطبيعة قداستها

الظاهرة كما تبدو

في عام 2023 رصد العلماء أن متوسط درجات الحرارة العالمية تجاوز الحد الحرج المتفق عليه في اتفاقية باريس وهو درجة ونصف سيلسيوس فوق مستويات ما قبل الصناعة. وتتراكم الأدلة العلمية على أن التغير المناخي ليس نظرية بل واقع موثق تجلياته في ارتفاع منسوب البحار وتصاعد الأعاصير وجفاف المناطق التي كانت خصبة وفيضان المناطق التي كانت جافة.

الإنسان استنزف موارد الأرض في مئتي عام من الحداثة الصناعية أكثر مما استنزفها في كل تاريخه السابق مجتمعاً. وأصبحت ظاهرة "يوم تجاوز الأرض" تتقدم كل عام: وهو اليوم الذي تستنفد فيه البشرية كل ما يمكن للأرض إنتاجه في عام كامل. في عام 2023 وقع هذا اليوم في الثاني من أغسطس أي أن البشرية تستهلك في ثمانية أشهر ما تُنتجه الأرض في اثني عشر شهراً.

الجذر الروحي العميق

التدمير البيئي ليس مجرد خطأ تقني أو اقتصادي يمكن إصلاحه بتقنية أنظف أو اقتصاد أخضر. إنه نتيجة حتمية لفلسفة معينة تنظر إلى الطبيعة على أنها ملك للإنسان يتصرف فيها كما يشاء لا أمانة عنده مسؤول عنها أمام خالقها.

وهذا الفرق الفلسفي البسيط بين الملكية والأمانة هو الذي يصنع الفارق الهائل في السلوك. مالك الشيء يستطيع أن يُهلكه دون حساب، أما الأمين على الشيء فيخشى حساب من ائتمنه.

والإسلام حدد العلاقة بين الإنسان والطبيعة تحديداً دقيقاً في مفهوم الاستخلاف:

(وَهُوَ الَّذِي جَعَلَكُمْ خَلَائِفَ الْأَرْضِ) - الأنعام: 165

الخليفة لا يملك بل هو مؤتمن على ما بين يديه، ويعلم أنه سيُسأل يوم القيامة عن كل ما أُؤتمن عليه. وهذه العقيدة لو طُبِّقت كانت أقوى رادع بيئي في التاريخ.

وقد قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "إن قامت الساعة وفي يد أحدكم فسيلة فإن استطاع أن لا يقوم حتى يغرسها فليغرسها" - رواه أحمد وصححه الألباني.

هذا الحديث يُقدم صورة مذهلة عن أخلاق المسؤولية البيئية في الإسلام: حتى في اللحظة الأخيرة من عمر الأرض يبقى واجب العناية بها قائماً. فكيف بمن بين يديه عمر طويل وموارد ضخمة؟

المظهر السابع: أزمة القيادة والسياسة - حين تفقد السلطة شرعيتها الروحية

الظاهرة كما تبدو

أفرز التراجع الروحي في الغرب أزمة حادة في الشرعية السياسية: الديمقراطيات الغربية تُعاني من هبوط حاد في ثقة الناس بمؤسساتها السياسية. في الولايات المتحدة وصلت نسبة الأمريكيين الذين يثقون بالحكومة الفيدرالية إلى أدنى مستوياتها في عام *2023* إذ لم تتجاوز عشرة بالمئة. وفي أوروبا تتصاعد موجة الشعبوية اليمينية واليسارية التي تتغذى على غضب الشعوب من نخبها السياسية.

والأزمة لا تقف عند حد عدم الثقة، بل تجاوزت إلى ما يُسميه العلماء "أزمة التماسك الاجتماعي": أي أن المجتمعات الغربية تنقسم إلى جبهات متناحرة لا تجمع بينها قواسم مشتركة كافية للحوار والتوافق. في أمريكا يُشير الباحثون إلى أن الاستقطاب السياسي الراهن هو الأشد حدة منذ الحرب الأهلية.

الجذر الروحي العميق

فقدان الشرعية الروحية للسلطة هو جذر هذه الأزمة. حين لا تستمد السلطة شرعيتها من مرجعية أعلى من الإرادة الشعبية المتقلبة، فإنها تُصبح رهينة اللحظة الانتخابية ومحكومة بالمزاج الجماهيري المتقلب والمصلحة الحزبية الضيقة.

وقد رأى المفكر الأمريكي ألكسيس دو توكفيل هذه الإشكالية منذ القرن التاسع عشر حين قال:

> "الديمقراطية تحتاج إلى دين، لأنها تحتاج إلى شيء يجعل الحرية مسؤولية لا فوضى، والمساواة إخاءً لا صراعاً. والدين هو الذي يُعلم الإنسان أنه مسؤول عن خياراته أمام مرجعية أعلى من الجموع وأدوم من الأكثرية"

والإسلام يُقدم نموذجاً للسلطة تستمد شرعيتها من الله أولاً ومن خدمة العباد ثانياً. فالحاكم في الإسلام ليس فوق المحاسبة بل هو الأكثر محاسبة، قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "كلكم راعٍ وكلكم مسؤول عن رعيته" - رواه البخاري ومسلم.

خاتمة الجزء الثاني: الصورة الكاملة

حين نجمع هذه المظاهر السبعة في صورة واحدة نرى حقيقة مذهلة: هذه المظاهر ليست مشاكل منفصلة بل هي أعراض مرض واحد يُسمى "الانفصال عن الله". الأسرة تتفكك لأن الرابطة الروحية الجامعة غابت. والوحدة تتفشى لأن الاتصال الحقيقي لا يكون دون جذر روحي مشترك. والاكتئاب يتصاعد لأن الحياة بلا معنى يقيني لا تُحتمل. والإدمان ينتشر لأن الألم الروحي بحاجة إلى مخدِّر حين يغيب الدواء الحقيقي. وأزمة الهوية تتعمق لأن الإنسان بلا خالق يُعرِّفه بلا هوية ثابتة. والطبيعة تُدمَّر لأن الأمانة غابت حين غاب الله من المعادلة. والسياسة تتعفن لأن السلطة بلا مرجعية إلهية تتحول إلى نزاع حول الغنيمة.

وكلها معاً تؤكد ما أعلنه القرآن الكريم منذ أربعة عشر قرناً:

> (ظَهَرَ الْفَسَادُ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِي النَّاسِ لِيُذِيقَهُم بَعْضَ الَّذِي عَمِلُوا لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ) - الروم: *41*

"لعلهم يرجعون": هذه الكلمة الأخيرة في الآية هي التي تُضيء نهاية النفق، وهي ما سيتناوله الجزء التالي بإذن الله.

الجزء الثالث: طريق الخروج من الأزمة - الحلول الربانية الشاملة

مدخل: قبل الحلول لا بد من فهم طبيعة العلاج

حين يُعالج الطبيب الحكيم مريضاً لا يبدأ بإعطائه الدواء فوراً، بل يبدأ بفهم طبيعة المرض وطبيعة المريض وطبيعة الدواء المناسب، لأن الدواء الخاطئ قد يكون أشد ضرراً من المرض نفسه. وهكذا ينبغي أن نتعامل مع الأزمة الروحية الكبرى التي نُعالجها في هذه الدراسة.

ثمة حقيقة جوهرية لا بد من استيعابها قبل الخوض في الحلول وهي أن علاج الأزمة الروحية لا يكون بمعالجة كل مظهر من مظاهرها على حدة، كما لا يُعالج مريض الفشل الكلوي بمعالجة تورم قدميه فحسب دون معالجة الكلية ذاتها. بل الحل يجب أن يصل إلى الجذر ليُعالج الأصل الذي تتفرع عنه كل الأعراض.

وقد حدد القرآن الكريم هذا الجذر بدقة بالغة في آية واحدة جامعة:

(يَا أَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَتْكُم مَّوْعِظَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَشِفَاءٌ لِّمَا فِي الصُّدُورِ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ) - يونس: *57*

لاحظ أن الله وصف القرآن بأربع صفات متتالية تُمثِّل مراحل العلاج:

- موعظة: تنبيه للقلب الغافل وإيقاظه من سباته
- شفاء لما في الصدور: علاج للأمراض الروحية الداخلية العميقة
- هدى: دليل ومنهج للسير في الطريق الصحيح
- رحمة: وليس مجرد علاج بارد بل علاج مُغلَّف بالرحمة والمحبة الإلهية

وهذه الصفات الأربع تكشف أن العلاج الرباني يعمل في طبقات متعاقبة ومتداخلة لا في طبقة واحدة.

وقبل عرض الحلول لا بد من الإشارة إلى حقيقة مهمة أخرى: الحلول التي يُقدمها الإسلام ليست وصفات جاهزة يمكن تطبيقها آلياً بلا روح، بل هي منظومة حياة متكاملة لا تعمل أجزاؤها بمعزل عن بعضها. فالصلاة لا تُعطي ثمارها الكاملة بلا صيام، والصيام لا يكتمل بلا زكاة، والزكاة لا تُنتج أثرها الاجتماعي الكامل بلا بناء الأسرة والجماعة. وكلها معاً منظومة واحدة متكاملة صممها الله لإنتاج الإنسان الكامل والمجتمع الصالح.

المستوى الأول: الحل الجذري - إعادة بناء العلاقة مع الله

أولاً: التوحيد الحقيقي - أساس كل علاج

لا يمكن الحديث عن علاج للأزمة الروحية دون البدء بالأساس الذي لا يقوم شيء بدونه وهو التوحيد الخالص. وحين نقول التوحيد لا نقصد مجرد الإقرار الذهني بوجود الله، فهذا الإقرار موجود عند كثير من الغربيين الذين يُعانون من أشد أشكال الأزمة الروحية. بل نقصد توحيداً يُعيد بناء علاقة الإنسان بالله علاقةً حية نابضة تُحرك القلب والعقل والسلوك في آن واحد.

التوحيد الحقيقي يعني في مستواه الأعمق أن يُدرك الإنسان أن الله هو مرجعه الأول والأخير في كل شيء: في فهم وجوده وفي تقييم أفعاله وفي بناء أولوياته وفي مواجهة مصائره. وأن كل ما سوى الله من المال والشهرة والسلطة والمتعة هو وسيلة لا غاية، وزاد لا هدف، ونعمة لا رب.

وقد كشفت الأزمة الروحية الغربية بصورة جلية ما أشار إليه القرآن من أن إقصاء الله لا يُنتج إنساناً بلا إله بل يُنتج إنساناً يبحث عن إله بديل. فالثروة أصبحت إلهاً، والشهرة أصبحت إلهاً، والهوى أصبح إلهاً، وكل هذه الآلهة البديلة تشترك في صفة واحدة: أنها عاجزة تماماً عن سد الحاجة الروحية الفطرية التي أودعها الله في الإنسان.

قال الله تعالى:

(فَاعْلَمْ أَنَّهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا اللَّهُ وَاسْتَغْفِرْ لِذَنبِكَ) - محمد: 19

لاحظ أن الله بدأ بالعلم لا بالعبادة. فالعلاج الأول ليس فعلاً جسدياً بل هو معرفة حقيقية: أن تعلم بيقين تام يملأ قلبك وعقلك أن لا إله إلا الله. وهذه المعرفة حين تكتمل في قلب الإنسان تُعيد بناء كل شيء من الداخل.

وقد أدرك هذه الحقيقة المفكر السويسري الكبير كارل يونغ بأسلوبه الخاص حين قال في آخر مقابلة معه قبيل وفاته وسأله المذيع: "هل تُؤمن بالله؟" فأجاب يونغ بعد صمت مطوّل:

"لا أؤمن، أنا أعرف."

وهو يقصد أن وجود الله بالنسبة له ليس فرضية يؤمن بها بل حقيقة يعرفها من تجربته العميقة مع أعماق النفس البشرية. وهذه هي المرتبة التي يُريدها الإسلام: اليقين لا مجرد الإيمان العاطفي.

ثانياً: التوبة والعودة - منطلق كل إصلاح

من أبلغ آيات القرآن الكريم في وصف العلاج الرباني للأزمة الروحية على مستوى الفرد والمجتمع قوله تعالى:

(قُلْ يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا مِن رَّحْمَةِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعاً إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ) - الزمر: 53

هذه الآية تُقدم أعمق علاج للجرح الروحي الذي يُعانيه الإنسان الغربي المعاصر، وهو جرح اليأس من الإصلاح. فكثير ممن يعيشون في وحل الأزمة الروحية لا يبحثون عن العلاج لأنهم يعتقدون أن لا علاج لهم، أنهم تجاوزوا الحد الذي يمكن بعده العودة.

والله يرد على هذا اليأس بأشمل وعد إلهي في القرآن: "يغفر الذنوب جميعاً" دون استثناء ودون شرط إلا شرط واحد هو الرجوع إليه. والمفارقة الرائعة أن هذه الآية نزلت في عصر كان فيه ناس ارتكبوا كل صنوف الذنوب، فبشّرتهم بأن باب الله لا يُغلق أمام من صدق في عودته.

وهذا بالضبط ما يحتاج إليه الإنسان الغربي الذي عاش عقوداً في الانفصال الروحي ويظن أن عودته مستحيلة: أن يعلم أن الله لا يُحاسبه على ما مضى إذا صدق في توبته وعودته.

وقد قال رسول الله صلى الله عليه وسلم في الحديث القدسي العظيم: "يا ابن آدم إنك ما دعوتني ورجوتني غفرت لك على ما كان منك ولا أبالي، يا ابن آدم لو بلغت ذنوبك عنان السماء ثم استغفرتني غفرت لك" - رواه الترمذي وحسّنه.

ومثال من الواقع المعاصر يُجسد هذه الحقيقة: المفكر الفرنسي روجيه غارودي الذي كان شيوعياً ملحداً عقوداً ثم أعلن إسلامه عام 1982 وهو في السبعين من عمره، وقال حين سُئل عن شعوره:

"شعرت كمن كان يحمل ثقلاً لم يُدرك وزنه إلا حين وُضع عنه. سبعون عاماً من الثقل في لحظة واحدة من السكينة."

ثالثاً: اليقين بالله - الصخرة التي لا تتزعزع

من أعمق ما تُقدمه الرؤية الإسلامية علاجاً للأزمة الروحية هو مفهوم اليقين. فالأزمة الروحية في جوهرها أزمة شك وجودي مزمن، شك في معنى الوجود وفي قيمة الحياة وفي وجود عدالة كونية. واليقين الإسلامي هو الصخرة التي يقف عليها المؤمن ثابتاً حين تتلاطم أمواج الشك والقلق والمعاناة.

وهذا اليقين ليس تعطيلاً للعقل بل هو ثمرته الأكمل. فالعقل حين يتأمل في الكون ودقة نظامه وبديع صنعته لا يمكن أن يُنتج إلا يقيناً بوجود خالق حكيم. وحين يتأمل الإنسان في نفسه وتعقيدها وعجائبها لا يستطيع إلا أن يُقر بأن هذا لا يكون عن طريق الصدفة العمياء.

قال الله تعالى:

(سَنُرِيهِمْ آيَاتِنَا فِي الْآفَاقِ وَفِي أَنفُسِهِمْ حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ أَوَلَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ) - فصلت: *53*

وقد كان هذا الوعد القرآني يُشير إلى ما يكشفه العلم الحديث كل يوم من آيات تُبهر العقول: من تعقيد الخلية الواحدة التي يُقر علماء الأحياء بأنها أعقد من أعقد المصانع التي يبنيها الإنسان، إلى دقة الثوابت الكونية التي لو تغير أي منها بنسبة ضئيلة لما أمكن قيام الحياة، إلى تعقيد الدماغ البشري الذي يضم مئة مليار خلية عصبية تتواصل عبر مئة تريليون اتصال.

كل هذه الآيات يُقدمها العلم الحديث على أنها مجرد حوادث بيولوجية وفيزيائية، لكنها في حقيقتها شواهد يقينية على خالق حكيم عليم. وحين يُدرك الإنسان هذا اليقين تتبدد أمامه أوهام الصدفة والعبثية التي هي مصدر أزمته الروحية.

المستوى الثاني: الحل البنيوي - إعادة بناء الإنسان من الداخل

أولاً: الصلاة - الصلة الحية بالله خمس مرات في اليوم

لو تأملنا الصلاة في الإسلام تأملاً عميقاً غير سطحي لوجدناها تُقدم علاجاً شاملاً ومتكاملاً لمعظم أعراض الأزمة الروحية الغربية. فهي ليست مجرد حركات جسدية وأقوال مخصوصة بل هي منظومة علاجية متكاملة تعمل على أبعاد متعددة في آن واحد.

الصلاة علاج للوحدة: فالمسلم يلتقي بالله خمس مرات في اليوم التقاءً حقيقياً لا رمزياً. وهذا اللقاء المتكرر مع أعظم الموجودين وأرحمهم هو خير علاج للوحدة الجوهرية التي يُعانيها الإنسان الغربي الذي لا يجد من يسمعه حقاً.

قال الله تعالى في الحديث القدسي: "أنا عند ظن عبدي بي وأنا معه إذا ذكرني" - رواه البخاري ومسلم.

المؤمن حين يقف في صلاته يعلم أنه أمام الله الذي يسمع أدق خواطره ويرى أعمق مشاعره ويُقدّر حتى ما لا يستطيع التعبير عنه. وهذا الإحساس بالحضور الإلهي المطلق هو نقيض الوحدة الكاملة.

الصلاة علاج للقلق والاكتئاب: ليس بالمعنى العاطفي فحسب بل بالمعنى العصبي الموثق علمياً. فالصلاة تجمع بين الحركة الجسدية والتنفس المنتظم والتركيز الذهني والتواصل الروحي، وهي أربعة عوامل أثبت علم الأعصاب الحديث أن تضافرها يُنتج حالة من الاتزان الكيميائي في الدماغ تُخفض مستويات الكورتيزول هرمون التوتر وترفع مستويات السيروتونين والدوبامين.

وقد أجرى الباحث الأمريكي هيرب بنسون من جامعة هارفارد دراسات موسعة على التأثيرات الفسيولوجية للصلاة والتأمل الديني وخلص إلى ما أسماه "استجابة الاسترخاء" وهي حالة فسيولوجية معاكسة لاستجابة التوتر ينتجها التركيز الروحي المنتظم. وهو ما يصفه المسلمون منذ أربعة عشر قرناً بالطمأنينة التي تعقب الصلاة.

الصلاة علاج للغرور والاستكبار: السجود هو أعمق تجسيد عملي لمعنى العبودية والتواضع. حين يضع الإنسان أشرف ما فيه وهو وجهه على الأرض خمس مرات كل يوم ويقول: "سبحان ربي الأعلى" فهو يُعيد في كل مرة ضبط البوصلة الوجودية: أنا لست الأعلى، بل الله هو الأعلى، وأنا عبده المفتقر إليه.

وهذا السجود هو علاج ناجع لأحد أعمق أمراض الحضارة الغربية وهو الغرور الحضاري أي الإحساس بأن الإنسان الغربي بلغ من القوة والعلم ما يجعله مستغنياً عن أي مرجعية تعلوه.

قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: *"أقرب ما يكون العبد من ربه وهو ساجد"* - رواه مسلم.

وفي هذا الحديث سر بديع: أقرب لحظة يصل فيها الإنسان إلى ربه ليست لحظة قوته وعلوه بل لحظة سجوده وتواضعه. وهذا نقيض مباشر لمنطق الحضارة الغربية التي تقول: كلما ازددت قوةً وعلماً وثروةً كنت أقرب إلى الاكتمال. الإسلام يقول: بل أقرب لحظات اكتمالك الروحي هي حين تسجد معترفاً بعجزك وافتقارك.

الصلاة علاج للانفصال عن الجماعة: صلاة الجماعة تُنتج ما لا تستطيع وسائل التواصل الاجتماعي بكل تقنياتها إنتاجه: الاتصال الروحي الحي المباشر بين البشر. حين يقف المسلمون في صف واحد أكتافهم متلاصقة متوجهين معاً نحو قبلة واحدة يُردِّدون كلمات واحدة، تنشأ بينهم رابطة روحية حقيقية لا يُنتجها أي تطبيق رقمي مهما تطور.

وقد أدرك علماء الاجتماع أن الطقوس الجماعية المنتظمة هي من أقوى روابط التماسك الاجتماعي. والصلاة الجماعية في الإسلام هي أروع نموذج لهذه الطقوس: يومية ومنتظمة وجامعة لكل طبقات المجتمع دون تمييز.

ثانياً: الصيام - تجديد السيطرة على النفس

في عالم يُعاني من إدمان الشهوات وعجز الإنسان عن التحكم في نفسه، يُقدم الصيام الإسلامي نموذجاً فريداً من نوعه لإعادة بناء الإرادة الإنسانية وإثبات قدرة الإنسان على التحرر من عبودية الشهوة.

الإنسان الغربي المعاصر يُعاني مما أسماه الباحث الأمريكي باري شوارتز بـ*"مفارقة الاختيار"*: أمامه آلاف الخيارات في كل لحظة لكنه عاجز عن الاختيار الحر لأنه مُستعبَد لشهواته ولمنطق الإعلان التجاري الذي يُلح عليه من كل اتجاه. فالحرية الغربية المعلنة في كثير من تجلياتها ليست حرية حقيقية بل هي عبودية لشهوة منطلقة بلا ضابط.

والصيام يُقدم التجربة العكسية: لمدة شهر كامل يُعلن الإنسان المسلم بجسده وإرادته أنه قادر على قول *"لا"* لأشد احتياجاته الجسدية إلحاحاً وهي الطعام والشراب، وذلك ليس قسراً أو خوفاً بل حباً وطاعةً لله. وهذه التجربة المتكررة تُبني في الإنسان عضلة الإرادة التي تُعينه على السيطرة على سائر شهواته طوال العام.

وقد أثبت علم النفس الحديث ما يُسميه *"عضلة الإرادة"* أي أن الإرادة كالعضلة تضعف بالاهمال وتقوى بالتمرين. والصيام هو أقوى تمرين للإرادة عرفه التاريخ البشري: شهر كامل من الانضباط اليومي المتكرر يُنتج إرادة أقوى وأكثر مقاومة للإغراء.

قال الله تعالى:

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُتِبَ عَلَيْكُمُ الصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى الَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ) - البقرة: *183*

"لعلكم تتقون": التقوى هي ثمرة الصيام، والتقوى في جوهرها هي هذه القدرة على الرقابة الداخلية التي تجعل الإنسان يضبط سلوكه حتى حين لا يراه أحد. وهذه الرقابة الداخلية هي بالضبط ما افتقده الإنسان الغربي الذي لا يضبط سلوكه إلا خشية القانون والمجتمع لا خشية الله.

والمجتمع الذي يتقي الله من الداخل لا يحتاج إلى نصف ميزانيته لبناء السجون وأجهزة الرقابة والقضاء، لأن ضمير كل فرد فيه هو رقيبه ومحاكمه الأول.

ثالثاً: الزكاة - علاج الأزمة الاقتصادية من جذرها الروحي

من أبلغ الحلول الربانية للأزمة الروحية وبُعدها الاجتماعي ما يُقدمه نظام الزكاة في الإسلام. فالزكاة ليست ضريبة اجتماعية بالمعنى الاقتصادي الجاف بل هي عبادة روحية تُعالج في آن واحد مرضين متلازمين: الشح في قلب الغني والحرمان في واقع الفقير.

الأزمة الاقتصادية في العالم اليوم وخاصة في ظل النظام الرأسمالي المتوحش ليست في أصلها أزمة ندرة الموارد بل هي أزمة توزيعها. فالعالم ينتج من الطعام ما يكفي ثلاثة أضعاف سكانه ومع ذلك يموت الجوع ما يزيد على ثمانمئة مليون إنسان. والسبب الجوهري لهذا التناقض المأساوي هو غياب المسؤولية الروحية لدى أصحاب الثروة تجاه من يفتقرون.

وحين تُصبح الزكاة عبادة لا ضريبة يتغير كل شيء: فالمُزكي لا يُعطي من يده العليا إلى يد محتاجة فحسب بل يُؤدي واجباً روحياً يُنقي به ماله ويُطهر به نفسه ويتقرب به إلى الله. ومن هنا جاء الاسم نفسه: الزكاة من التزكية أي التطهير والنمو.

قال الله تعالى:

(خُذْ مِنْ أَمْوَالِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِم بِهَا وَصَلِّ عَلَيْهِمْ إِنَّ صَلَاتَكَ سَكَنٌ لَّهُمْ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ) - التوبة: 103

والتطبيق الاقتصادي لهذه العبادة لو طُبِّق بصدق وشمولية كان كفيلاً بحل إشكالية التفاوت الاقتصادي الكارثي التي تُعاني منها البشرية. فنسبة الزكاة وهي ربع العشر من المال الزكوي المتراكم لو أُخرجت في مجتمع يمتلك فيه أصحاب الثروات ما يمتلكون اليوم لكانت كافية لسد احتياجات الفقراء جميعاً.

والأهم من البُعد الاقتصادي هو البُعد الروحي: الزكاة تُعلم الغني أن ماله ليس ملكه المطلق بل هو أمانة فيه لله وللفقراء. وهذا التصور يُشفي من داء الجشع والتكالب والاستغلال الذي هو قلب الأزمة الاقتصادية الغربية.

رابعاً: الحج - إعادة الوحدة الإنسانية من جذرها

لو تأمل إنسان منصف مشهد الحج في مكة المكرمة بعيون من يُدرك عمق الأزمة الروحية الغربية لبكى من إدراك الفارق: ملايين البشر من كل لغات الأرض وألوانها وأعراقها وثقافاتها يتجمعون في مكان واحد لابسين لباساً واحداً محرِّمين الاختيال والتفاخر والتمييز، يُردِّدون نداءً واحداً ويتوجهون نحو قبلة واحدة.

في عالم تتصاعد فيه العنصرية والقومية المتطرفة وصراعات الهويات، الحج نموذج حي ومُجسَّد لما يمكن أن يكون عليه التجمع البشري حين تُوحِّده رابطة روحية حقيقية تتجاوز كل الفوارق الدنيوية.

قال الله تعالى:

(وَأَذِّن فِي النَّاسِ بِالْحَجِّ يَأْتُوكَ رِجَالاً وَعَلَى كُلِّ ضَامِرٍ يَأْتِينَ مِن كُلِّ فَجٍّ عَمِيقٍ) - الحج: 27

"من كل فج عميق": من كل طريق بعيد، من كل ركن من أركان الأرض. وهذا الجمع الكوني السنوي للبشرية حول بيت الله هو الرد الإسلامي الأبلغ والأجمل على نزعات التفرقة والتحزب والعصبية التي تمزق العالم.

المستوى الثالث: الحلول الاجتماعية - إعادة بناء الجماعة

أولاً: إعادة بناء الأسرة على أساس القيم الربانية

الأسرة المسلمة المتكاملة هي أقوى خلية لمقاومة الأزمة الروحية ومناعة ضدها. وإعادة بناء الأسرة يستلزم فهم المنهج الإسلامي في تأسيسها وصون استمرارها بعيداً عن كلا النقيضين: التشدد الذي يُحوّل الأسرة إلى سجن، والانحلال الذي يُحوّلها إلى علاقة عابرة.

الزواج على أساس المودة والرحمة لا الرومانسية فقط: قلنا سابقاً إن الزواج في الإسلام يقوم على مودة ورحمة وهما بناء إرادي واعٍ لا مجرد مشاعر عابرة. وهذا يعني أن الزوج والزوجة حين يُقررَّان الزواج يُقررَّان معاً بناء شيء أكبر من مجموع مشاعرهما اللحظيةً. وحين تمر المشاعر بفترات فتور كما يحدث لكل زوجين في التاريخ، فإن الإرادة والقرار والمسؤولية المشتركة والإيمان بأن الله سيُبارك صبرهما تُمسكهما معاً حتى تعود المشاعر بأعمق مما كانت.

قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "استوصوا بالنساء خيراً" - رواه البخاري ومسلم.

وهذه الوصية النبوية ليست مجرد توصية أخلاقية بل هي مبدأ تأسيسي في علاقة الزوجين: الإحسان والعناية والاهتمام المتبادل هو الذي يُبقي الرابطة الزوجية حية ومتجددة.

دور الأم والأبوة في التنشئة الروحية: من أعمق ما أُصيبت به الحضارة الغربية هو الاستهانة بدور الأمومة وتقديمه على أنه إهدار لطاقات المرأة وأنها حين ترعى أطفالها تُفوِّت على نفسها فرص "تحقيق ذاتها". وهذا المنطق أفرز جيلاً من الأطفال نشأ في دور الحضانة وأمام شاشات التلفاز بدلاً من أن ينشأ في أحضان أم واعية تُغذيه روحياً وعاطفياً في سنواته التأسيسية الأولى.

والإسلام يُقدم تصوراً مختلفاً تماماً: دور الأم في التنشئة الروحية لجيل جديد هو من أعظم الأدوار وأكثرها أثراً في الحضارة الإنسانية. فالأم الواعية التي تُربي أبناءها على القرآن والقيم والفضيلة تُبني أمةً، لا من خلال المكتب أو المصنع بل من خلال الدور الأعظم قيمةً والأكثر تأثيراً.

قال رسول الله صلى الله عليه وسلم حين سأله رجل: "من أحق الناس بحسن صحابتي؟" قال: "أمك" ثم "أمك" ثم "أمك" ثم "أبوك" - رواه البخاري ومسلم.

ثانياً: المسجد - مركز الحياة المجتمعية الروحية

من أعظم ما يُقدمه الإسلام علاجاً للأزمة الروحية الاجتماعية نموذج المسجد الذي يختلف جذرياً عن الكنيسة الغربية التي صارت مجرد مكان للعبادة الأسبوعية الباردة في أحسن أحوالها.

المسجد في الإسلام في نموذجه الأصيل هو مركز الحياة المجتمعية بجميع أبعادها: مكان للعبادة والتعلم والقضاء والاستشارة والتواصل الاجتماعي وإطعام الجائع وإيواء المسافر وحل النزاعات. وقد كان المسجد النبوي نموذجاً حياً لهذا التصور المتكامل.

وحين يستعيد المسجد دوره الحقيقي في المجتمعات المسلمة، يكون قادراً على تقديم ما تعجز عنه كل مؤسسات الرعاية الاجتماعية الغربية: الاتصال الروحي الحي في إطار مجتمعي دافئ. فالشيخ المُسنّ الذي يجد في المسجد من يُحييه ويسأل عن حاله ويجلس إليه لا يحتاج إلى دار للعجزة باهظة التكاليف. والشاب الذي يجد في المسجد رفقة صالحة وتوجيهاً حكيماً لا يحتاج إلى معالج نفسي بأجر باهظ.

ثالثاً: منظومة الأخوة الإسلامية - البديل الحقيقي للفردانية

من أعمق الحلول الإسلامية للأزمة الروحية الاجتماعية التي تُعبّر عنها الفردانية الغربية المُدمِّرة هي منظومة الأخوة الإسلامية التي جعلها الإسلام رابطة دينية عقدية لا مجرد علاقة ثقافية أو اجتماعية.

قال الله تعالى:

(إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ) - الحجرات: *10*

"إنما": أداة حصر تعني أن الإيمان الحقيقي لا يكون إلا مع هذه الأخوة. فالمؤمن الذي يعيش في عزلة عن إخوانه المؤمنين ناقص الإيمان مهما صلى وصام.

وقد بنى النبي صلى الله عليه وسلم أول مجتمع إسلامي على أساس هذه الأخوة بصورة عملية مذهلة: حين هاجر المسلمون من مكة إلى المدينة آخى النبي بين المهاجرين والأنصار فراد فراد أخوة حقيقية، بحيث كان الأنصاري يُعطي أخاه المهاجر نصف ماله ونصف بيته ويُشاركه في كل شيء.

وهذا النموذج حين يُطبَّق يُقدم حلاً لأزمات كبرى: أزمة الوحدة حين يجد كل إنسان من يعتني به حقاً لا مجرد إعجاب رقمي، وأزمة الفقر والتفاوت الاقتصادي حين يشعر الغني بمسؤوليته الروحية تجاه أخيه المحتاج، وأزمة الهوية حين ينتمي الإنسان إلى جماعة تعرفه بالاسم لا بالرقم.

المستوى الرابع: الحلول الفكرية - إعادة بناء العقل المسلم

أولاً: التفكر والتدبر - العقل الذي يرى الله في الكون

من أهم الحلول التي يُقدمها الإسلام للأزمة الروحية هو استعادة ملكة التفكر والتدبر التي قتلتها ثقافة الترفيه الغربية وسرعة وسائل التواصل الاجتماعي.

التفكر في الإسلام ليس رفاهية ثقافية بل هو عبادة في حد ذاتها:

(إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ لَآيَاتٍ لِّأُولِي الْأَلْبَابِ * الَّذِينَ يَذْكُرُونَ اللَّهَ قِيَاماً وَقُعُوداً وَعَلَى جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ) - آل عمران: *190-191*

الذكر والتفكر مذكوران معاً في هذه الآية كعبادة واحدة متلازمة. فالذكر بلا تفكر يصبح ترديداً آلياً جوفاء، والتفكر بلا ذكر يصبح فلسفة عقيمة. أما حين يتلازمان فإنهما يُنتجان اليقين الحي الذي يُداوي جرح الشك الوجودي.

وقد ضربت الحضارة الغربية الحديثة هذا التلازم بين العقل والروح حين فصلت بينهما وجعلت العلم في وادٍ والدين في وادٍ آخر. والإسلام يُعيد وصل ما قطعته الحداثة الغربية: العقل أداة معرفة الله لا أداة إقصائه.

ثانياً: القرآن الكريم - الشفاء الذي يُجدد نفسه في كل قراءة

لا يمكن الحديث عن الحلول الإسلامية للأزمة الروحية دون أن يكون للقرآن الكريم الصدارة والريادة. فهو ليس كتاباً تاريخياً يُقرأ ليُفهم ماضٍ بل هو حوار حي بين الله وقارئه في كل لحظة وكل مكان وكل عصر.

من أسرار القرآن الكريم التي لا يُدركها إلا من جربها: أن الآية الواحدة يمكن أن يقرأها الإنسان مئة مرة فتُعطيه في كل مرة معنى جديداً يتناسب مع حاله وظرفه وسؤاله. وهذا الثراء اللانهائي في نص محدود الكلمات هو دليل إعجازه وهو أيضاً سر قدرته الشفائية الدائمة.

الإنسان الذي يجلس مع القرآن كل يوم ولو لعشر دقائق بقلب حاضر وعقل متدبر يجد أنه يُغادر هذا الجلوس مختلفاً عما كان، أكثر اطمئناناً وأوضح رؤيةً وأعمق حكمةً. وهذا التأثير الذي يصفه ملايين المسلمين يُؤكده الباحثون في آليات مختلفة.

قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: *"اقرؤوا القرآن فإنه يأتي يوم القيامة شفيعاً لأصحابه"* - رواه مسلم.

ثالثاً: العلم الشرعي - الحصن الفكري من الضياع

من أعمق الحلول للأزمة الروحية التي تُعانيها المجتمعات الإسلامية نفسها قبل الغربية هو العلم الشرعي الصحيح المستند إلى الكتاب والسنة بفهم السلف الصالح.

فالأزمة الروحية ليست حكراً على الغرب بل تصيب المسلمين أيضاً حين يبتعدون عن منهجهم الرباني أو حين يتشربون الثقافة المادية الغربية دون أن يملكوا حصانة فكرية كافية لمواجهتها.

والعلم الشرعي الصحيح هو هذه الحصانة: حين يعرف المسلم عقيدته معرفة صحيحة ويفهم مقاصد شريعته فهماً عميقاً ويستوعب سيرة نبيه استيعاباً حياً، يصبح في مناعة حقيقية من وسوسة الشك الوجودي ومن إغراء البدائل الروحية الزائفة.

قال الله تعالى:

(شَهِدَ اللَّهُ أَنَّهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ وَالْمَلَائِكَةُ وَأُولُو الْعِلْمِ قَائِماً بِالْقِسْطِ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ) - آل عمران: *18*

أن يُجمع الله والملائكة وأولو العلم في شهادة واحدة هو دليل على المكانة الرفيعة التي يحتلها العلم في الإسلام. والعلم الحقيقي في منظور القرآن ليس علماً عقلياً بارداً فحسب بل هو علم يُخشع ويُنير ويُقرب من الله.

المستوى الخامس: السنن الكونية كطريق للخروج من الأزمة

أولاً: سنة التدرج - لا يتغير الإنسان في لحظة

من أهم ما يجب فهمه في مسألة العلاج الروحي هو سنة التدرج التي أرساها الله في طبيعة التحول الإنساني. فالإسلام نفسه لم يُحوِّل المجتمع العربي الجاهلي في ليلة واحدة بل كانت عملية تدرجية امتدت ثلاثة وعشرين عاماً، نزل خلالها القرآن الكريم منجَّماً أي مُقسَّطاً وفق طاقة الإنسان على التحمل والتغيير.

وهذا درس بالغ الأهمية في مواجهة الأزمة الروحية الغربية: لا نطلب من الإنسان الغربي أو من المسلم المنفصل عن دينه أن يتغير في يوم واحد، بل نُقدم له طريق التدرج الذي يبدأ بما يستطيع ثم يرتقي شيئاً فشيئاً.

قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: *"أحب الأعمال إلى الله أدومها وإن قلّ"* - رواه البخاري ومسلم.

العمل الدائم وإن كان صغيراً خير من العمل الكبير المنقطع. وهذا المبدأ النبوي العميق يُقدم فلسفة علاجية صحيحة: البداية الصغيرة المستمرة أجدى من الطموح الكبير المتقطع.

ثانياً: سنة الابتلاء والنمو - المعاناة ليست عبثاً

من أعمق الحلول الروحية للأزمة الوجودية التي يُعانيها الإنسان الغربي هو فهم سنة الابتلاء الإلهي وما تُنتجه من نمو روحي لا يُمكن تحقيقه بغيرها.

الحضارة الغربية بنت نموذجها على أساس أن الراحة والرفاهية هي الغاية، وأن كل ألم هو عدو يجب القضاء عليه. فأنتجت بذلك جيلاً هشاً عاجزاً عن مواجهة الشدائد، لأنه لم يُربَّ على أن الألم قد يكون جزءاً من معنى الحياة لا عائقاً أمامه.

والإسلام يُقدم فلسفة مختلفة جذرياً للألم والابتلاء:

(وَلَنَبْلُوَنَّكُم بِشَيْءٍ مِّنَ الْخَوْفِ وَالْجُوعِ وَنَقْصٍ مِّنَ الْأَمْوَالِ وَالْأَنفُسِ وَالثَّمَرَاتِ وَبَشِّرِ الصَّابِرِينَ * الَّذِينَ إِذَا أَصَابَتْهُم مُّصِيبَةٌ قَالُوا إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ * أُولَٰئِكَ عَلَيْهِمْ صَلَوَاتٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَرَحْمَةٌ وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُهْتَدُونَ) - البقرة: *155-157*

لاحظ أن الله يُبشِّر الصابرين لا يُعزيهم فحسب. والتبشير يعني أن ما ينتظر الصابر هو فرح وبشرى لا مجرد تعويض عن ألم. وهذا يُعيد تأطير الابتلاء كله: ليس عقوبة ولا صدفة بل هو اختبار ينتهي إلى رفعة الدرجات وصلوات الله ورحمته.

وهذا الإطار المعنوي للمعاناة يمنح الإنسان ما وجده فيكتور فرانكل شرطاً لازماً للبقاء في أشد الأحوال قسوة: وجود سبب ومعنى للمعاناة.

ثالثاً: سنة التوازن - الوسطية كمنهج حياة

من أعمق الحلول الربانية للأزمة الروحية ما جعله الله من صفات هذه الأمة في قوله:

(وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطاً لِّتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيداً) - البقرة: *143*

الوسطية ليست موقفاً سياسياً ولا حلاً وسطاً بين الحق والباطل كما يفهمها بعضهم خطأً، بل هي منهج حياة متوازن يُعطي كل ذي حق حقه: للجسد حقه وللروح حقها، وللدنيا حقها وللآخرة حقها، وللفرد حقه وللجماعة حقها، وللعقل حقه وللقلب حقه.

وهذا التوازن هو بالضبط ما افتقدته الحضارة الغربية حين أعطت الجسد كل شيء وأعطت الروح لا شيء، وحين منحت الفرد كل الحقوق وألقت عنه كل المسؤوليات، وحين قدّست الدنيا وأنكرت الآخرة.

المستوى السادس: تقديم النموذج الإسلامي للغرب

أولاً: شهادة المسلمين الجدد في الغرب

من أقوى الأدلة العملية على أن الإسلام يُقدم الحل الحقيقي للأزمة الروحية الغربية هو الموجة المتصاعدة من دخول الغربيين إلى الإسلام، ليس بالإكراه ولا بالترغيب المادي بل بالقناعة الفكرية والحاجة الروحية.

في فرنسا يدخل الإسلام سنوياً ما يتراوح بين عشرين وثلاثين ألف شخص وأغلبهم من الشباب المتعلم. وفي المملكة المتحدة تُشير الإحصاءات إلى أن المسلمين الجدد يتجاوز عددهم مئة ألف شخص خلال العقد الأخير. وفي الولايات المتحدة يتراوح عدد المعتنقين للإسلام سنوياً بين عشرين وخمسة وعشرين ألف شخص.

والأهم من الأرقام هي القصص: هؤلاء الناس ليسوا محرومين يبحثون عن عصا يتكئون عليها بل كثيرون منهم أطباء ومحامون وأكاديميون ورجال أعمال ناجحون، جربوا ما تُقدمه الحضارة الغربية وشعروا أنهم يحصلون على القشرة بلا اللب، فبحثوا عن اللب فوجدوه في الإسلام.

قالت ليزا كوف الأمريكية التي أسلمت وهي محامية ناجحة:

"كنت أملك كل ما كان يُقال لي إنه الحياة الجيدة: المهنة المرموقة والراتب المجزي والحياة الاجتماعية النشطة. وكنت أشعر في كل مساء قبل النوم بسؤال يُقلقني: هذا كل شيء؟ ثم قرأت القرآن وكانت الإجابة أعمق مما توقعت: لا ليس هذا كل شيء، بل هذا أدنى شيء، وما بعده أعظم وأبقى."

وقال المهندس الفرنسي ستيفان لاكروا بعد إسلامه:

"وجدت في الإسلام ما لم أجده في الفلسفة الغربية رغم دراستي لها سنوات: جواباً شافياً لسؤال لماذا، ومنهجاً عملياً لسؤال كيف، وأفقاً لانهائياً لسؤال إلى أين. الفلسفة الغربية تُحسن طرح الأسئلة لكنها تعجز عن الإجابة، والإسلام يطرح الأسئلة الصحيحة ويُجيب عنها بما يُرضي العقل ويُشبع الروح."

ثانياً: واجب المسلمين في تقديم النموذج

وهنا تبرز مسؤولية عظيمة لا يمكن التغافل عنها في هذه الدراسة: المسلمون هم حملة هذه الرسالة الكاملة الشافية، فهل يُقدِّمونها للعالم بصورتها الحقيقية؟

الواقع يُشير إلى أن أزمة المسلمين اليوم جزء من المشكلة، لأن كثيراً من المسلمين يحملون الإسلام اسماً لكنهم لا يُمثِّلون نموذجه الحضاري الكامل. والعالم الذي يُراقب كيف يعيش المسلمون لا يرى دائماً ما يُغريه بالبحث عن الإسلام الذي يحملون.

قال الله تعالى:

(كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ) - آل عمران: *110*

"أُخرجت للناس": هذا التعبير يُشير إلى أن هذه الأمة لم تُخلق لنفسها فحسب بل أُخرجت أي أُوجدت لهدف أكبر وهو الشهادة على الناس وحملهم إلى الخير. فحين تفشل في هذا الدور تُخل بواجب الاستخلاف الكبير الذي أُسند إليها.

والطريق إلى استعادة هذا الدور يمر عبر ثلاثة محطات كبرى:

المحطة الأولى: إصلاح المسلم نفسه من الداخل بالعودة الصادقة إلى منهج القرآن والسنة بفهم صحيح متوازن بعيد عن الغلو والتقصير.

المحطة الثانية: إصلاح المجتمع المسلم بإقامة نماذج حية للعدل والتكافل والعلم والأخلاق التي تُجسِّد الإسلام في الواقع لا في الخطاب فحسب.

المحطة الثالثة: التواصل مع العالم بلغة حضارية راقية تُقدِّم الإسلام في مستوى تساؤلات القرن الحادي والعشرين لا في لغة القرن الماضي وإشكالياته.

خاتمة الدراسة: الأمل في نهاية النفق

نصل في نهاية هذه الدراسة الطويلة المتشعبة إلى لحظة يجتمع فيها التشخيص والعلاج في صورة واحدة جامعة.

الأزمة الروحية التي يُعانيها العالم الغربي وبدرجات متفاوتة كثير من المجتمعات الإسلامية هي في جوهرها نتيجة طبيعية وحتمية لانفصال الإنسان عن المنهج الرباني الذي صمّمه خالقه لحياته. وكما أن السيارة حين تُشغَّل بغير الوقود الذي صُممت له تُصاب بالأعطاب المتتالية مهما كان تصميمها متطوراً، فكذلك الإنسان حين يُشغِّل حياته بغير المنهج الإلهي يُصاب بأعطاب روحية واجتماعية وحضارية متتالية مهما بلغت تقنيته وثروته.

والبشرى العظيمة أن الله لم يترك الإنسان في حيرته بل أرسل إليه خاتم رسله صلى الله عليه وسلم بالمنهج الكامل المحفوظ في كتاب لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه. وهذا المنهج متاح لكل إنسان في كل مكان وزمان يريد الشفاء الحقيقي.

(وَنُنَزِّلُ مِنَ الْقُرْآنِ مَا هُوَ شِفَاءٌ وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ وَلَا يَزِيدُ الظَّالِمِينَ إِلَّا خَسَاراً) - الإسراء: *82*

الشفاء موجود والدواء معروف والطريق مرسوم. وما بقي إلا من يُريد الشفاء حقاً، لأن الشرط الأوحد هو إرادة الإنسان الصادقة في العودة إلى الله.

وقد قال الله تعالى في آية تُلخِّص الدراسة كلها في جملة واحدة جامعة:

(يَا أَيُّهَا الْإِنسَانُ إِنَّكَ كَادِحٌ إِلَى رَبِّكَ كَدْحاً فَمُلَاقِيهِ) - الانشقاق: *6*

أيها الإنسان مهما فررت ومهما هربت فأنت كادح إلى ربك كدحاً. الطريق وجهة واحدة لا غير. السؤال الوحيد هو: هل ستسلك هذا الطريق في عافية ويقين وسكينة، أم في ضلال وقلق وشقاء؟

والإسلام يُقدم لك الطريق الأول. وهذا هو الحل الوحيد الحقيقي الشافي الكافي.

والحمد لله رب العالمين، وصلى الله وسلم على نبيه الكريم، وعلى آله وصحبه أجمعين.


الأَزمَةُ الرُّوحِيَّةُ
في العالم
منطلقاتها و أسبابها و سبيل الخروج منها